التفسير العلمي للقرآن
تاريخ وتطور
(الجزء الأول)

تأليف
الدكتور/ محمد علي سلامة

الناشر
مكتبة الآداب
ميدان الأوبرا بالقاهرة

الإهداء

إلي الله راجيا القبول

إلي روح أبي الذي علمني القرآن

دعاء بالمغفرة له وأملاً أن أكون قد حققت أمله.

إلي روح أمي جزاء ما قدمت لي من دعم ومساندة في رحلتي العلمية . غفر الله لها بقدر ما قدمت وأحسنت

بسم الله الرحمن الرحيم

اما قبل

فقد شغلت بهذا الموضوع منذ زمن طويل وأنا أتابع حركة تفسير القرآن الكريم ولاحظت أن حركة التفسير تسير مع العصر الذي تعيشه ؛ وتابعت كثيرا من البحوث التي دارت حول هذا العلم ؛وكلها جهود مخلصة حاولت رصد هذه الظاهرة ، منها ما ركز علي مفسر من المفسرين ؛ومنها ما ركز علي عصر من العصور ، وكان أكثرها اتساعا بحث الدكتور محمد حسين الذهبي الذي تناول قصة التفسير منذ عصر الرسول صلي الله عليه وسلم إلي العصر الحديث خاصة وقت كتابة بحثه مستعرضا كل مناهج التفسير وجهود المفسرين علي اختلاف انتمائهم ؛وهو جهد كبير لم يسبقه إليه أحد ولن يلحق به أحد ، وكثير من البحوث التي جاءت بعده تأثرت به بشكل أو بآخر .

والحق أنه بالرغم من كثرة هذه الجهود لم ينفرد بحث منها بالحديث عن ظاهرة التفسير العلمي للقرآن ؛ولكنه جاء عرضا في إطار الحديث عن التفسير في العصر الحديث أو في مجري الحديث عن قضية العلم والدين التي شغلت الفكر الديني المعاصر بعد سيطرة النزعة العلمية علي الحياة الاجتماعية في عصرنا الحاضر ؛ وبعد انتشار الأفكار المادية التي نظرت إلي الدين نظرة متشككة .

وانتبهت للأمر وبدأت أنشغل به ، وأخذت أتتبع الجهود التفسيرية القديمة التي أشار إليها الذهبي في إيجاز لانشغاله بمدي صحة هذه الظاهرة وقبولها أو عدم قبولها ومن ثم رحت أقرأ ماقدمه الغزالي سواء في الإحياء أو كتابه الذي خصصه لذلك ، ووجدت أنه أول حديث نظري عن فكرة احتواء القرآن لكل العلوم ، وتابعت صدي حديثه هذا فوجدته لم يجد صدي إلا عند مفسر واحد هو الرازي الذي جاء تفسيره موسوعة بكل ما تحمله كلمة

موسوعة من معني فقدانطلق من النص القرآني ، وحلق في كل آفاق العلوم التي وصلت إلي قيمتها في عصره سواء كانت علوما إنسانية أو علوماً طبيعية ، وفي الوقت نفسه وجدت كتاباً آخر له بعنوان أسرار التنزيل وأنوار التأويل يحوي كثيراً من الأفكار التي تناولها بالتفصيل عن تفسير القرآن، وتقترب من أفكار الغزالي مما يشي بمدي تأثره بأفكاره .

ثم تابعت القراءة فوجدت في مستهل العصر الحديث كتابا لم ينل حظه من الاهتمام بالرغم من أنه يسير في الخط نفسه ، وتأثر كثيراً بالغزالي والرازي ؛ ويعد بمثابة حلقة الوصل بين القديم والحديث ، وهو كتاب بالرغم من ضخامته إلا أنني لم أعثر إلا علي إشارة عابرة إليه عند الذهبي ، ولحسن الحظ وجدت نسخته التي تكاد تكون الوحيدة في دار الكتب ، هذا الكتاب هو" كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية" للطبيب المصري محمد بن أحمد الإسكندراني الذي عاش معظم حياته في دمشق من علماء القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين أي في القرن التاسع عشر الميلادي ، ويتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء خص الجزء الأول بالحديث عن الحيوانات ، وتناول فيه جميع الحيوانات بما في ذلك الإنسان ؛ وتناول الجزء الثاني الحديث عن الأجرام السماوية والكواكب والفلك والأرض وخصص الجزء الثالث للحديث عن النباتات بجميع أنواعها ، وقد نقل فيه كثيراً عن الرازي وأضاف إليه بعض علوم عصره ، فوجدت أنه يعد مرحلة تستحق الانفراد وحدها باعتبارها مرحله متطورة عن الجهود السابقة فأفردت لها فصلا خاصا به يستحقه .

ثم وجدت أن الظاهرة قد نضجت علي يد الشيخ طنطاوي جوهري متمثلة في تفسيره الكبير" الجواهر في تفسير القرآن الكريم" الذي يستحق

أن يوصف بالتفسير العلمي للقرآن خاصة وأن السمة الأساسية له كانت النزعة العلمية في التفسير ، وقد حاول الشيخ جاهداً أن يضفي هذه السمة عليه لإيمانه الشديد بأن القرآن جاء شاملا لكل العلوم ، وهذه مقولة الغزالي في جواهر القرآن ؛ ولإيمانه أيضا بأن هذه النزعة العلمية هي السبيل الوحيد لنهضة الأمة الإسلامية ورقيها .

ولما كانت الجهود في هذا المجال كثيرة ، سواء التي واكبت ظهور تفسير الجواهر والتي بعده ، خاصة التي جاءت بعده أكبر من أن تحصر في هذا المجال فقد قسمت البحث جزءين حتي يأخذ كل جزء حقه من البحث والدرس وخصصت الجزء الأول الذي بين يدي القارئ لهذه الجهود التي تحدثت عنها ، وأبقيت للجزء الثاني تلك الجهود التي طرحت في هذا الميدان وهي كثيرة ونأمل إن شاء الله أن نحيط بمعظمها إن لم نتمكن من متابعتها كلها .

ولطبيعة البحث وجدت أن أنسب المناهج التي يمكن أن أتعامل بها مع هذه النصوص هو المنهج التأويلي الذي يعتمد علي قراءة النص من داخله ؛ والتعمق في تحليله وتفسيره مع ربط كل نص منها بمعطيات عصره وثقافته منتج هذا النص حتي يمكن الوصول إلي نتائج أكثر دقة من التي اعتمدت مسبقا علي معلومات عن مؤلف النص ، والتي يمكن أن تؤثر علي قراءة النص فتؤدي إلي نتائج يمكن أن يكون فيها ظلم للنص ولصاحبه ومن هنا جاء هذا الجزء في ثلاثة فصول ؛ يتعرض الأول منها ، وهو بعنوان الإرهاصات للظاهرة قديما وتضمن الحديث عن الغزالي ، ثم الرازي وجهودهما في هذا المجال وفيه أوضحت كيف طرح الأول الفكرة نظريا في كتابه جواهر القرآن ، ثم طبقها الثاني عمليا في تفسيره الكبير المسمي "مفاتيح الغيب "وجاء الفصل الثاني بعنوان تطور الظاهرة ، واقتصر الحديث علي كتاب الطبيب الشيخ محمد بن أحمد الإسكندراني الذي حاول أن يجعل

كتابه مستقلا بتفسير الآيات التي تتضمن إشارة كونية أو خلقية شاملا لجميع العوالم الفلكية والحيوانية والنباتية .

ثم اختص الفصل الثالث وهو بعنوان "مرحلة النضج "بالحديث عن الشيخ طنطاوي جوهري وتفسيره "الجواهر في تفسير القرآن " وحاولت أن أتبين منهجه من داخل التفسير لا من المقولات التي وردت عنه وتابع بعضها بعضاً مع مراعاة عدم تجاهلها حتي أستطيع أن أتعرف مدي الجهد الذي بذله الشيخ في تفسيره وهل حاد عن الطريق الصحيح للتفسير أم سار علي المنهج الذي سلكه من قبله المفسرون مع التركيز علي جانب محدد وهو بيان الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .

وأعقبت ذلك بخاتمة موجزة جداً لأنني لست من أنصار تلخيص الجهد في نقاط موجزة فتشغل القاري عن متابعة الجهد الذي آمل أن يكون موفقاً ، وحرصي علي متابعة القارئ ليس من باب إظهار قدرة أو بيان إمكانية وإنما من باب التواصل والتقويم ، فأنا أريد من قارئ البحث أن يلاحقني بملاحظاته التي أنتظرها لأفيد منها ، فما أنا في النهاية إلا طالب علم يسعي للتعلم والإفادة من آراء الآخرين حتي يصل إلي الصورة التي يرجوها لنفسه ، ويرضي عنها الله ويرضي عنها الناس بعد ذلك .

وفي النهاية فإن كل ما قدم في هذا البحث هو اجتهاد ، والاجتهاد يحتمل الصواب والخطأ وكما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم "من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران " والله أسأل أن أنتفع بما أتعلم، وأن ينفع غيري بما أعلم إن كانت فيه فائدة.

دكتور / محمد علي سلامة

مرحلة الإرهاصات
التفسير العلمي قديما

تقديم

يظن البعض أن التفسير العلمي للقرآن الكريم ولد مع التطور العلمي والتكنولوجي في العصر الحديث ، ويرجع ذلك الظن إلي أمرين :أولهما أن نظر المحدثين إلي الجهود التفسيرية القديمة جري وراء مقولة عامة أطلقها قدماء الباحثين في عصرنا الحديث وهي أن المفسرين الأوائل لم يعنوا إلا بالتفسير اللفظي أو الفقهي ولم تكن هذه الفكرة وليدة قراءة متأنية لكتب التفسير القديمة ، بل نتيجة انطباع عام ؛وتابعهم في ذلك كثير من الباحثين.

وثانيهما : أن النهضة العلمية الحديثة شملت آثارها كل نواحي الحياة بصورة لم يسبق إليها في العصور القديمة مع أن الحضارة العربية في عصرها الذهبي كانت معنية أيضاً بالعلوم الطبيعية ، ولكن الفارق بين الماضي والحاضر أنهم عنوا في الماضي بفلسفة العلوم ،أي دراستها من الناحية النظرية والفلسفية ، ولكن الأمر اختلف في عصرنا الحاضر نتيجة لظهور آثار مادية للعلوم الطبيعية متمثلة في منتجات الحضارة الحديثة مما هيأ الأذهان لقبول تصور أن الحديث في العلم وليد العصر الحديث ؛ ومن ثم فإن مشكلة ربط العلم بالدين ولدت مع هذه السيطرة الكاملة للعلم علي شئون حياتنا العلمية وقد ظهرت مع هذا التطور قضية التوفيق بين العلم والدين بصورة تشبه إلي حد كبير الثنائية القديمة:" الدين و الفلسفة "والتي كان لها أثر فعال في ظهور كثير من العلوم العربية إبان الحضارة العباسية ومن ثم فالقضية ليست جديدة بل هي قديمة في ثوب جديد ، فالفلسفة قديما كانت إطاراً يشمل جميع العلوم ، وأظن أن الغرب ظل متأثراً بهذا الاعتقاد ، ولعل في بقاء تسمية درجة الدكتوراه بدكتوراه الفلسفة في العلوم الطبيعية

ما يدل علي هذا التأثر ويؤكد وجهة نظر القدماء من علماء العرب كابن سينا والفارابي والكندي وغيرهم من الفلاسفة الذين أدرجوا دراستهم للعلوم الطبيعية في إطار أمهات كتبهم الفلسفية .

ويمكن القول إن هذه النظرة الفلسفية العلمية كان لها دور في مجال الفكر الديني في ذلك الوقت ، فقد هدفت إلي تدعيم موقف الفلاسفة الرامي إلي إضفاء صبغة عقلانية علي الفكر الديني ، بحيث لا يقتصر علي النقل فقط وإنما يتعانق العقل مع النقل في صياغة تصور جديد للنص القرآني حتي لا يظل نصاً صامتا جامداً يتناقله الناس دون وعي ، إنما يصبح فاعلا يؤدي دوره في كل زمان ومكان .

(١)

وقد انعكست هذه الرؤية في أعمال المفسرين القدماء سواء من غلب علي تفسيرهم طابع النقل أومن اتسمت أعمالهم بالاجتهاد والاستنباط من النص ، ولكنها تتضح أكثر عند المجتهدين الذين أعملوا العقل في فهم النص ، فالطبري الذي يغلب علي تفسيره طابع النقل يفسر الآيات التي تتضمن إشارات علمية أيضا ، وإن كان تفسيره لها سطحياً لا يتعمق في التحليل ؛ وهذا أمر منطقي لأنه لم يكن مشغولا بهذا وإنما كان هدفه الأسمي هو طرح تصور كامل لما قيل في تفسير آيات القرآن الكريم قبله وحتي عصره هو ، ومن ثم لم يقف عند القضايا التي وقف عندها غيره ممن حاولوا الاجتهاد في فهم القرآن من مفهوم عقدي (مذهبي) مثل الزمخشري الذي قدم تصوراً بلاغيا راقيا للقرآن الكريم ، وقد تعرض لشرح آيات الإعجاز الكوني التي وردت في بعض سور القرآن الكريم ، ولكن المنطلق البلاغي الذي انطلق منه الزمخشري جعله أيضا لا يتوقف عندها طويلا .

ولكننا نجد موقفين واضحي التعبير عن هذه الرؤية الفلسفية العلمية هما موقف الإمام أبي حامد الغزالي ، وكذلك فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير المسمي بـ (مفاتيح الغيب) والاثنان يقفان عند قضية اشتمال القرآن الكريم علي إشارات علمية أو كما يسميها الغزالي اشتماله علي علوم الأولين والآخرين، والحديث عند الغزالي يأخذ منحي نظرياً فيركز علي بيان العلوم التي يشتمل عليها القرآن .

ويبدأ الحديث عن العلوم عند الغزالي في الإحياء ، إذ يصدّر كتابه الإحياء بباب كامل عن العلم وفضله ، ويبين فيه فضل العلماء ، وكذلك فضيلة التعليم والتعلم ويسهب في بيان كل ذلك ، مستدلا بأقوال كثيرة من الشيوخ السابقين عليه ، ثم يتبع ذلك بباب عن العلم المحمود والعلم المذموم ، وبيان العلم الذي هو فرض عين ، والعلم الذي هو فرض كفاية .(١)

ونستخلص مما طرحه الغزالي في الإحياء أنه يقسم العلوم قسمين :علوم الدنيا وعلوم الدين أو علوم الآخرة ، ويندرج تحت إطار علوم الدنيا كل العلوم بما في ذلك العلوم المتصلة بالقرآن الكريم من تفسير وقراءات وفقه ونحو وبلاغة ، أما علوم الآخرة فهي علوم التصوف التي تصل بصاحبها إلي معرفة الله تعالي وهي علمان ، علم مكاشفة وعلم معاملة ، و (علم المكاشفة هو علم الباطن وذلك غاية العلوم)(٢)، أما علم المعاملة (فهو علم أحوال القلوب) (٣)، ويري الغزالي أن القرآن مشتمل علي هذه العلوم

---

(١) لمعرفة مزيد من التفاصيل راجع إحياء علوم الدين ، الجزء الأول ط٢-الغد العربي ، القاهرة سنة ١٩٨٦.

(٢) الإحياء ج١/٣

(٣) الإحياء جـ١/٣٦

جميعها ، وحتي العلوم التي لم يشر إليها مثل الكلام والفلسفة يقول (فإن قلت : فلم لم تورد في أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو محمودان ؟ فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه)(١) والمتأمل لما جاء في الإحياء يري أن الغزالي متأثر بما عايشه من نهضة علمية فلسفية ، إذ يشير في حديثه إلي كل ما ظهر في عصره من علوم سواء كانت علوماً إنسانية أو علوماً طبيعية ، وقد حاول جاهداً أن يسخرها لخدمة منهجه الصوفي ، فالعلوم علي درجاتها إما سالكة بالعبد إلي الله تعالي،أو معينة علي السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل في القرب والبعدمن المقصود)(٢)، ويضرب مثالا علي كيفية خدمة علوم الدنيا لعلوم الآخرة بعلمي الطب والفقه، وكيف يوصلان إلي علم المكاشفة ، فشبههما بالزاد والراحلة للمسافر للحج، وأن الطب ضروري لحفظ البدن الذي هو مطية الوصول إلي الهدف الأسمي وهو معرفة الله التي هي غاية علم المكاشفة ، والفقه ضروري لحفظ التوازن بين رغبات الأفراد ، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه ،وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية ، فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وفرزها إذا لم يسلك بادية الحج ، والمستغرق عمره في دقائق الكلمات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق

---

(١) الإحياء جـ١/٣٨

(٢) الإحياء جـ١/٨٧

الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج ، ونسبة هولاء السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلي علم المكاشفة كنسبة أولئك إلي سالكي طريق الحج أو ملابس أركانه "(١)

ومن هذا النص يتضح أن الغزالي لا ينكر العلوم الدنيوية ولا يذمها كلية ، بل يضع شرطاً للاشتغال بها ، وهي أن تكون خادمة لعلوم الآخرة أو علم الوصول إلي معرفة الله سبحانه وتعالي ، وربما كان تشبيهه لعلم الآخرة بالحج تشبيهاً ذكيا إذ إن الحج سفر إلي الله وإهمال لكل مظاهر الدنيا وخلوص بالنفس إلي خالقها ورغم ذلك فإنه لا يستغني عن الزاد والرحلة ، وهما رمز لعلوم الدنيا ، فالحج غاية والزاد والرحلة وسيلة ، وبدون الوسيلة لا يمكن أن نصل إلي الغاية .

وتتفق هذه النظرية مع المنطلق الذي بدأ منه الفلاسفة جهودهم للبحث في فلسفة العلوم في الماضي بالرغم من أن الغزالي نفسه يهاجم الفلاسفة إلا أن مسار حديثه ، حتي وإن غلبت عليه النزعة الصوفية ، متأثر إلي حد بعيد بما قاله الفلاسفة ، وليس هذا فقط ، بل إنه يشبه المنطق الحديث في البحث في الإعجاز العلمي للقرآن في العصر الحديث ، مع اختلاف التوجيهات تبعاً لاختلاف الظروف والأحوال .

وإذا كان الفلاسفة قد انطلقوا يبحثون في آفاق الكون عن طريق لإثبات القدرة التي تتحكم في تسيير هذا الكون ، ليصلوا من خلال ذلك إلي إثبات وجود الله بالطريقة العقلية لتتفق مع النقل الذي جاء يخبر بذلك ، ومصدره الأساسي القرآن ، ومن هنا بدأ التلاقي ، وكان في فكرهم ما يشبه الجدل والحوار الدائم بين النص باعتباره الأساس النقلي والواقع باعتباره

---

(١) الإحياء جـ١/٩٢

الدليل المادي المقنع عقليا ، وإذا كان هذا منطلقهم فإن منطلق الغزالي لم يخرج كثيراً عن هذا حيث حاول التوفيق بين النص والواقع أيضاً من منطلق وجداني ، فالواقع إذا كان ظاهراً يخفي وراءه حقيقة صانعه أي أنه ظاهر يخفي وراءه باطنه ، أو بمعني صوفي يحجب ويستر الخالق الذي أبدع هذا الكون ، فإن النص القرآني كذلك ظاهر متمثل في اللغة التي صنع بها يخفي وراءه باطنا هو حقيقته الدالة علي قائله وهو الله ، وبنفس هذه الثنائية تكون النظرة إلي الدنيا والآخرة .

وبالرغم من أن الدنيا في هذا الإطار تعد ظاهرا يخفي وراءه حقيقة الخالق وكذلك حقيقة الآخرة التي هي أسمي وأهم إلا أن الدنيا هي معبر الآخرة ، والعلم بها مهم ، والعمل فيها كذلك مهم أيضاً ، لأنه لا يمكن أن نصل إلي الآخرة إلا عن طريقها وبالرغم من تمييز الغزالي للآخرة علي الدنيا ، وعدّه فريق المتصوفة وهو واحد منهم هم فريق الآخرة وعلماؤها إلا أن العلم بالدنيا مهم لأن "أقل درجات العلم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها"(١)

ويؤكد هذا المعني في جواهر القرآن حيث يقول:" إن الدنيا منزل من منازل السائرين إلي الله تعالي والبدن مركب فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلي الله تعالي الذي هو السلوك ولا يتم ذلك حتي يبقي بدنـــــه

(١) الإحياء جـ١/١٠١

سالما ونسلـــه دائما . ويتم كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما"(١)

إذاً العلم بالدنيا مهم علي المستوي العام وعلي المستوي الفردي ، وكل ذلك من أجل أن يصل الإنسان إلي الآخرة وكذلك معرفة الحق التي هي غاية السالكين إلي طريق الآخرة ، وهي أسمي غايات المتصوفة ، ومن يريد أن يصل إلي هذه الغاية لابد أن ينتصر علي حالته البهيمية المرتبطة بالدنيا وكدورتها ليصل إلي الحالة التي تؤهله للوصول إلي الغاية الأسمي ولا يمكن الانتصار عليها إلا بالعلم ، الذي به تتحول الأشياء إلي قيمة أنفس " إن الكبريت الأحمر عند الخلق في عالم الشهادة عبارة عن الكيمياء التي يتوصل بها إلي قلب الأعيان من الصفات الخسيسة إلي الصفات النفيسة حتي ينقلب به الحجر ياقوتا والنحاس ذهبا إبريزا ليتوصل به إلي اللذات في الدنيا مكدرة منغصة في الحال منصرمة علي قرب الاستقبال ، أفتري أن ما يقلب جواهر القلب من رزالة البهيمة وضلالة الجهل إلي صفاء الملائكة وروحانيتها ليترقي من أسفل السافلين إلي أعلي عليين ، وينال به القرب من رب العالمين والنظر إلي وجهه الكريم أبداً دائماً سرمداً هل هو أولي باسم الكبريت الأحمر أم لا - فلهذا سميناه الكبريت الأحمر "(٢)

فإذا كانت الكيمياء المادية قادرة علي قلب الأشياء الخسيسة إلي أشياء نفيسة ، فإن الكيمياء الروحية تحول الإنسان من رزالـــة البهيمـــة

---

(١) الغزالي /جواهر القرآن طـ(٥) بيروت ١٦/١٩٨١

(٢) جواهر القرآن / ٣٤

وضلالة الجهل إلي صفاء الملائكة وروحانيتها ، وبها يستطيع الإنسان أن يترقي من أسفل سافلين إلي أعلي عليين ، ومن هنا يبرز التشابه بين الاثنتين إذ يوصل كل منهما إلي الغاية المرجوة ، وأعلي ما يطلبه الإنسان من الذهب الياقوت الأحمر ، وأعلي ما يطلبه السالك في الطريق أن يصل إلي معرفة الذات ويقرن الغزالي بينهما أيضا يقول " ثم أنفس النفائس التي تستفاد من الكيمياء اليواقيت وأعلاها الياقوت الأحمر ، فلذلك سميناه معرفة الذات " (١)

وهكذا تتضح أهمية العلم عند الغزالي ، فالعلم ينقي المظاهر الدنيوية من كدوراتها ويوصلها إلي أعلي درجات نقائها ، وهذا هو الأساس الذي يمكن أن ينطلق منه الصوفي بهدف الوصول إلي غاياته العليا ، " إن العلاقة هنا بين الرمز والمرموز إليه هي علاقة (القلب والتحويل) ذلك أن معرفة الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله تحول الإنسان من حالة إلي حالة ، من حالة الجهل والضلال إلي حالة العلم والهداية فتنقله من عداد البهائم إلي مستوي الملائكة تماماً كما يقلب الكبريت الأحمر المعادن الخسيسة ويحولها إلي معادن نفيسة " (٢).

(٢)

القرآن في نظر الغزالي " هو البحر المحيط ، ومنه يتشعب علم الأولين والاخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها " (٣) ،

---

(١) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٢) نصر حامد أبو زيد / مفهوم النص/ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠/٣١٥

(٣) جواهر القران /٨

وهذا التشبيه الذي يضعه الغزالي للقران الكريم ليس عشوائيا ، ولا من قبيل المبالغات اللفظية التي ترد علي ألسنة المتكلمين ، ولكنه تشبيه له دلالته ، فهو لم يشبهه بالبحر ويكتفي بذلك ، وإنما يجعله محيطاً ، لأن المحيط أوسع من البحر وأعمق منه ، ولأنه لفظة المحيط تعطي دلالة الشمول بالإضافة إلي الاتساع والعمق ، وهذه الصفات جميعها تنطبق علي القرآن فهو واسع من حيث سوره وآياته وألفاظه ، وهو عميق من حيث معانيه ، وهو شامل من حيث مقاصده وأهدافه لكل أمور الحياة ، وإذا كان المحيط قد سمي محيطا لشموله اليابس بين أرجائه واتصاله بالفضاء اللامحدود فإن قرينة التشابه بينه وبين القرآن أن الإنسان خلق من الطين ، وأن القرآن يحيط به كما أن القران متصل باللامحدود وهو الله منزله وقائله ، ولذلك فإن التشبيه هنا عند الغزالي له دلالته ، وتتسع هذه الدلالة لتشمل العمق والاتساع ويستخرج منه الدرّ والزبرجد ، ولذلك يقول " أو ما تغبط أقواماً خاضوا في غمرة أمواجها فظفروا بالكبريت الأحمر ، وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر والدر الأزهر والزبرجد الأخضر ، وساحوا في سواحلها ، فالتقطوا العنبر الأشهب ، والعود الرطب الأنضر ، وتعلقوا إلي جزائرها واستدروا من حيواناتها الترياق الأكبر ، والمسك الأزفر " (١) .

والنقطة الثانية الخاصة بتفرع العلوم من القرآن فإنه يشبه هذا التفرع ، بتفرع الأنهار والجداول من البحار ، وربما كان هذا تصوراً قديما لسنا في موضع محاكمته بالصواب والخطأ ، ولكن دلالته أبعد من هذا ، فإننا نتصور " أن المقصود هنا هو التأثير والتأثر ، فالأنهار والجداول تنشأ مـــن

(١) المصدر نفسه /٩،٨

البحار ثم تعود إليها ، وهكذا الموقف مع العلوم والقرآن ، فهي تتفرع منه، وطريقة تفرعها من القرآن تشبه عملية البخر الناتج من البحار والذي يتكاثف منه الماء ليصبح فيما بعد أنهاراً وجداول ، وتصب هي بالتالي في البحر مرة ثانية فبالتأمل والاستنباط تنتج العلوم من القرآن لأنه يحوي علم الأولين والآخرين وفي الوقت نفسه فإن معرفة العلوم الأخري تضئ السبيل إلي معرفة القرآن معرفة حقيقية .

وإذا كان البحر مصدراً لكثير من النفائس فإن القرآن أيضاً مصدر كل النفائس ففيه كل وسائل الهداية التي ترشد الإنسان إلي ما ينفعه في حياته، وبالطبع تكون العلوم أكثر هذه الوسائل ، فإذا ما أفاد منها المسلم كانت زينة له في حياته الدنيا وكذلك في آخرته ، يقول الغزالي مكملا تشبيهه السابق " أو ما تغبط أقواماً خاضوا في غمرة أمواجها فظفروا بالكبريت الأحمر وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر والدر الأزهر والزبرجد الأخضر ، وساحوا في سواحلها ، فالتقطوا العنبر الأشهب ، والعود الرطب الأنضر ، وتعلقوا إلي جزائرها واستدروا من حيواناتها الترياق الأكبر والمسك الأزفر " (١) .

ولنتأمل هذا التصوير الذي يبين إلي أي حد يري الغزالي القرآن وهو محيط بكل الفوائد ، حتي يعطي الكبريت الأحمر ، فالأمواج هي نتاج التفاعلات في البحر بين مياهه وكائناته وسفنه ، وهي في القرآن خلاصة

---

(١) جواهر القرآن /٨-٩

علومه وقوانينه التي عن طريقها يتوصل السالك إلي معرفة الله التي تعد أسمي الغايات عند المتصوفة ، وإذا كانت الكيمياء بتأثيرها في تحويل الأشياء إلي جواهر نفيسة فإن معرفة الله علي مستوي المعرفة الصوفية تمثل الكبريت الأحمر (١) إذ عن طريقها يتحول الإنسان من حالته المادية إلي حالة روحانية ، وهي التي تقود إلي باقي النفائس ،" وتشتمل هذه المعرفة علي معرفة ذات الحق ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال ، وهذه الثلاثة هي الياقوت الأحمر فإنها أخص فوائد الكبريت الأحمر ، وكما أن لليواقيت درجات فمنها الأحمر والأكهب والأصفر وبعضها أنفس من بعض ، فكذلك ، هذه المعارف الثلاثة ليست علي رتبة واحدة ، بل أنفسها معرفة الذات فهو الياقوت الأحمر ثم يليه معرفة الصفات وهو الياقوت الأكهب، ويليه معرفة الأفعال وهو الياقوت الأصفر ، وكما أن نفس هذه اليواقيت أجل وأعز وجوداً ولا تظفر منه الملوك لعزته إلا باليسير وقد تظفر مما دونه بالكثير ، فكذلك معرفة الذات أضيقها مجالا وأعسرها منالاً وأعصاها علي الفكر، وأبعدها عن قبول الذكر ، ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا علي تلويحات وإشارات ويرجع ذكرها إلي التقديس المطلق كقوله تعالي :(ليس كمثله شئ) وسورة الإخلاص وإلي التعظيم المطلق كقوله تعالي :(سبحانه وتعالي عما يصفون بديع السموات والأرض)(٢).

---

(٢) لاحظ أن هذا المصطلح يستخدمه المتصوفة كثيراً بل يطلق علي شيخهم الأكبر ابن عربي فهم يلقبونه بالكبريت الأحمر لما له من تأثير في المذهب بصفة عامة فكراً وسلوكاً .

(٢) جواهر القران / ١٠

وهكذا تتفرع هذه اليواقيت بدرجاتها من جراء تفاعل الكبريت الأحمر ، وقد جعل الغزالي لكل درجة من درجات العلوم المتفرعة من الجذر الأساسي وهو معرفة الله فأعلي الدرجات هو الياقوت الأحمر ، الأساس ، لكل اليواقيت ، وهو يوازي عند الغزالي معرفة الذات التي تنبثق منها معرفة الصفات والأفعال والتي توازي عنده الياقوت الأكهب والأصفر ، وهما متولدان من الياقوت الأحمر ، وكما أنه عزيز المنال فإن مايوازيه وهو معرفة الذات عزيزة حتي علي الملوك فلا يظفرون منه إلا علي اليسير ، ويري الغزالي أن القرآن لم يشتمل علي الكثير من الآيات التي تدل علي معرفة الذات ، وربما كان السبب في هذا الموقف أن الإشارة إلي الصفات والأفعال تغني عن الحديث المفصل والمتكرر عن الذات لأنها علي قدر جلالها يجب أن تختفي وتتواري وراء هذه الصفات والأفعال ، "وأما الصفات فالمجال فيها أفسح ونطاق النطق فيها أوسع ولذلك كثرت الآيات المشتملة علي ذكر العلم والقدرة والحياة والكلام والحكمة والسمع والبصر وغيرها ، وأما الأفعال ، فبحر متسع أكنافه ولاتنال بالاستقصاء أطرافه ، بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله ، وكل ماسواه فعله لكن القرآن يشتمل علي الجليّ منها الواقع في عالم الشهادة كذكر السموات والكواكب والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر أسباب الثبات والحياة وهي التي ظهرت للحس ." (١)

---

(١) جواهر القرآن ١٠ - ١١

وليس معني أن الصفات مجالها أفسح ، والأفعال بحرها متسع أنها أقل مكانة من معرفة الذات بل هي فرع منها ولننظر إلي جملة (بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله) لنتأكد من صحة هذا الافتراض ، فالصفات والأفعال كلها ملازمات للذات ، ومرتبطة بها ارتباطا قويا ، فالصفات هي صفات الذات ، والأفعال ناتجة عن صفات الذات ، والغزالي يتدرج بالمعرفة من أساسها ويسير بها في إطارها الصحيح ، فمعرفة الذات هي الجذر الذي تتولد وتتفرع منه الفروع الأخري كما أن القرآن الكريم نفسه أحد ناتجات الذات عن طريق الصفات ،وكأنه يريد أن يحذر السائر في الطريق ، والذي يريد أن يقف بنفسه عند مسألة العلوم المنبثقة من القرآن ، ألا يفصل هذا الناتج عن أصله ، بل عليه أن يصعد به في رحلة متنامية متصاعدة حتي يصل إلي الجذر ا لأساسي ، فلا ينظر الناظر إلي سطح البحر بظواهره بل عليه أن يصل معه إلي أعماقه ليكتشف مافيه وليصل إلي حقيقته وهذا تنبيه ضمني علي المتعامل مع القرآن والدارس له ليحاول أن يسير معه حتي يتمكن من الوصول إلي أعماقه التي تنتهي بمعرفة الذات ، ولأنها شيىء عسير فلا يصل إليها إلا القليلون ، وهذا ماأشار إليه الغزالي بعسرها حتي علي الملوك ، ولم يقصد بهذا المفهوم العام لدي عامة الناس عن قدرة الملوك وإنما ذكرهم لأنهم الذين يملكون في يدهم الوسائل التي تعينهم علي تحقيق مايريدون ، ومع هذا يعز عليهم هذا العلم ، وهي إشارة أيضا إلي أن الوصول إليها يتطلب كثيرا من المثابرة والعزم ، إذ يمكن أن ينشغل السالك في طريقها بما يصادفه من مظاهر الصفات والأفعال وتفريعاتهما ، وهما كفيلان بشغل الذهن ، فلا بد أن يضع في اعتباره أنه يسعي إلي معرفتها ليوصلاه

إلي معرفة الذات وهي غاية الغايات .

ونستطيع أن نقول إن الغزالي هنا يرشد إلي الطريق الصحيح في هذا الإطار إذ إن العلوم مهما اتسعت وتشعبت وحاول العلماء ربطها بالقرآن الكريم يجب أن تنطلق من مفهوم محدد أنها دلالة وإثبات علي قدرة الخالق وناتج أفعاله ، وعلي المتصدي للحديث في مسألة العلم والقرآن أن ينطلق من القرآن ليصل إلي العلوم وليس العكس كما يحدث عند كثيرين ممن يتناولون هذه المسألة في عصرنا الحديث ؛ إذ إنهم ينطلقون من العلوم ليؤكدوا بها القرآن ، وهو منطلق معكوس لأن مايتوصل إليه العلم الحديث متغير ومتطور طبقا لتغير وتطور التفكير الحديث ، أما القرآن فنص إلهي ثابت يتضمن الإشارات العلمية كما يتضمن سائر أمور الدنيا والآخرة وهو معني بالأمور الكلية وليس بالأمور الجزئية والتفصيلات .

ويشير الغزالي إلي مايشبه هذا المعني في نهاية حديثه عن القسم الأول من أقسام علوم القرآن ، وهو الخاص بمعرفة الله تعالي ، يقول " واعلم أن أكثر الأفعال وأشرفها لايعرفها أكثر الخلق بل إدراكهم مقصور علي عالم الحس والتخيل وأنهما النتيجة الأخيرة من نتائج عالم الملكوت وهو القشر الأقصي عن اللب الأصفي ومن لم يجاوز هذه الدرجة فكأنه لم يشاهد من الرمان إلا قشرته ، ومن عجائب الإنسان إلا بشرته"[1] ، أي أن الناس مهما نما علمهم فلن يستطيعوا الخروج من دائرة الحقيقة الكبري ، وقد عبر عنه بالقشر الأقصي عن اللب الأصفي ، وإذا عدنا إلي الدرجات التي وضعها الغزالي للمعرفة وجدنا توافقا في المشبه والمشبه به فالذات بينها

وبين الأفعال الصفات ، والمدركات الحسية هي ناتج الأفعال ، وبهذه الصورة يصبح بين هذه المحسوسات وبين الذات مرحلتان هما الصفات والأفعال وعلي السالك في المعرفة أن يرتقي من المدركات لمعرفة ماوراءها من أفعال ، ثم ينتقل درجة ثانية إلي ماوراء هذه الأفعال من صفات ليصل بعد ذلك إلي معرفة الذات وهي غاية الغايات في الفكر الصوفي الذي يقف الغزالي واحدا من أهم أعمدته الرئيسية .

- ٣ -

صنف الغزالي سور القرآن الكريم إلي عشرة أصناف (وبعبارته أقسام) ، وأطلق عليها ألقابا لها دلالتها ، أما القسم الأول فهو تعريف المدعو إليه وهو شرح معرفة الله تعالي ، وأطلق عليها لقب الكبريت الأحمر ويتفرع هذا القسم إلي ثلاثة فروع بحسب ترتيب أهميتها وشرحها ، معرفة الذات ثم الصفات ثم الأفعال وجعل فيها أصناف اليواقيت ، والقسم الثاني في تعريف طريق السلوك إلي الله تعالي وذلك بالتبتل وتحته فرعان أطلق عليهما في ختام التقسيم جانبي التحلية والتزكية ، والتحلية تأتي بالملازمة والتزكية تأتي بالمخالفة ، الملازمة لذكر الله تعالي والمخالفة لما يشغل عن الله ، والقسم الثالث تعريف الحال عند ميعاد الوصال والمقصود به الآخرة ، والقسم الرابع في أحوال السالكين والناكبين ، أي أن هذا القسم فرعان فرع عن السالكين وهم الأنبياء والأولياء ، وفرع عن الناكبين وهم إبليس وجنوده في الأرض كفرعون وغيره ممن استكبروا ، والقسم الخامس محاجة الكفار ومجادلتهم ، والقسم السادس عمارة منازل الطريق ، وأكثره مشتمل علي الحدود والأحكام "فهذه مجامع ماتنطوي عليه سور القرآن وآياتها وإن جمعت الأقسام مع شعبها المقصودة في سلك واحد ألفتها عشرة أنواع : ذكر الذات

وذكر الصفات ، وذكر الأفعال ، وذكر المعاد ، وذكر الصراط المستقيم ، أعني جانبي التزكية والتحلية ، وذكر أحوال الأولياء وذكر أحوال الأعداء ، وذكر محاجة الكفار ، وذكر حدود الأحكام [1] .

وتلاحظ أن الغزالي يطلق علي كل قسم من الأقسام الستة الرئيسة لقبا يمكن أن نعده رمزا ، فالقسم الأول هو الكبريت الأحمر الذي تخرج من اليواقيت الأحمر والأكهب والأصفر، وهي توازي علي الترتيب معرفة الذات ، والصفات ، والأفعال ، أما القسم الثاني الخاص بتعريف طريق السلوك إلي الله فيطلق عليه لقب الدر الأزهر ، أما القسم الثالث وهو تعريف الحال عند ميعاد الوصال فهو الزمرد الأخضر ، وفي القسم الرابع الخاص بأحوال السالكين والناكبين يوجد العنبر الأشهب والعود الرطب الأنضر .

ويوجد في القسم الخامس الترياق الأكبر ،أما القسم السادس فيوجد فيه المسك الأذفر .

ولاشك أن لهذه الألقاب والرموز دلالتها عند الغزالي ، فالأقسام الثلاثة الأولي جواهر نفيسة سواء كانت يواقيت أو درا أو زمردا لأنها أعظم وأنفس مايتمناه الإنسان أن يحصل عليه من الدنيا ،وهي توازي مايتمني السالك إلي الله أن يحصل عليه نتيجة لجهده الدائب نحو الوصول إلي معرفة الله ، وكذلك اختيار وصف الأزهر للدر له دلالته ، فهذا الجزء من

---

(١) جواهر القرآن / ١٢

(٢) جواهر القرآن / ١٧

القرآن بمثابة منارات تضيء الطريق أمام السالكين ، وللنور الذي يشع منها بكل مايحمله من صفات النقاء والوضوح فإنها زهراء ، أما تعريف الحال عند ميعاد الوصال فهو زمرد أخضر ، والخضرة هنا دلالتها واضحة في الإشارة إلي الحياة ، ونحن نعلم أن الآخرة هي الحياة الأبدية .كما أنها ترمز أيضا إلي الجنة الخضراء بكل مافيها من نعيم وأشجار وبساتين يتنعم بها أهلها ويتوافق مع ذلك تماما الألقاب التي أطلقها علي الأقسام الثلاثة الأخري .

فأحوال السالكين والناكبين أعطاها لقب العنبر الأشهب والعود الرطب الأنضر ، فهذه الأحوال تنطلق من زاوية واحدة هي طريق السلوك إلي الله وهو إما إلي اليمين فيصبح سالكا وأما إلي اليسار فيصبح ناكبا ، أي أن الاثنين عبارة عن وجهتي نظر تجاه أمور محددة كلها تنطلق من مفهوم واحد هو السعي في الحياة ، والرمز هنا العنبر الشهب له دلالته بشقيه ، فالعنبر يستخدم للرائحة الطيبة ويمكن أن يستخدم كمخدر ، والأشهب الذي يجمع بين اللونين المتناقضين الأبيض والأسود ، بمعني أن الشيىء وحده ذو حدين ، حد طيب وحد خبيث ، وكذلك العود الرطب الأنضر يمكن التمتع به علي أنه طيب ، فإن استخدمه بطريق خاطيء كسر وتلف .

أما القسم الخامس وهو محاجة الكفار ومجادلتهم فقد أعطاه لقب الترياق الأكبر ،ونحن نعلم أن الترياق في حقيقته هو مصل يؤخذ من نفس عينة الداء ،كما أن الترياق هو الدواء والدواء علاج ولكن الإكثار منه يؤدي إلي الهلاك أي أنه يحمل في طياته المتناقضات ومحاجة الكفار إما أن

تقرب إلي الهداية أو تقود الي الضلال،والنجاه في الهداية والهلاك في الضلال .

والقسم السادس عمارة منازل الطريق فلقبه بالمسك الأذفر لأنه يشتمل علي الأحكام والحدود ، واتباعها والالتزام بها يجنب المسلم كثيرا من السلوكيات التي تسبب له النجس ، وفي الوقت نفسه تسبب له طيب النفس وطيب الرائحة ، كما أن في تجنبها قربا من الاعمال الطيبة العبادة والمعاملة. ونعتقد أن المسك الأذفر يحقق نفس النتائج للمتطيب به ، وكما أن الالتزام بالحدود والأحكام يجعل المسلم حسن السيرة مقبولا لدي الناس وموضع ثقتهم وطمأنينتهم ، ويجمع الناس إليه ، فان المسك الأذفر له نفس الأثر في الآخرين ، ومن الطبيعي أن يكون تصنيف الغزالي لعلوم القرآن باستخدام ثنائية القشر واللب أو الصدف والجوهر تصنيفا حقيقيا حرفيا من منظوره علي الأقل ، وأن يكون استخدام صور الكبريت الأحمر والبواقيت والدر والزبرجد والعنبر والعود والترياق والمسك استخداما غير مجازي أو كنائي فهذه الصور وبالاحري المعاني - تشير إلي حقائق القرآن إشارة مباشرة في حين أن اشارتها ومضمونها الدنيوي المادي هي الإشارة التصويرية غير المباشرة ، هي الإشارة المجازية والكنائية [1]

(١) نصر أبو زيد ، مفهوم النص ص ٣١٦ وإذا كان نصر أبو زيد يري أنها صور أو إشارات تصويرية غير مباشرة فإننا قد عبرنا عنها بالرموز ، والفرق بينهما ليس كبيرا فالرمز في حد ذاته اشارة تصويرية الي مدلول معين يريد أن يعبر عنه الغزالي من خلال المفهوم الذي طرحه للقرآن . كما أن الغزالي نفسه ذكر صراحة أنها رموز وذلك في أكثر من موضع في جواهر القرآن .

الملاحظ في كل ماسبق أن الغزالي يركز علي العلوم الدينية ، وقد يتبادر إلي الذهن أنه لم يتحدث عن الاعجاز العلمي بالمعني الذي نفهمه اليوم من كلمة العلم ، ولكن الحقيقة أن الغزالي لم يفته هذا بل تنبه إليه تماما وعقد فصلا في كتابه جوهر القرآن لهذه المسأله ..وأوضح أنه ركز علي العلوم الدينية قاصدا لأنها لابد من وجودها في العالم حتي يتيسر سلوك طريق إلي الله تعالي والسفر إليه ، ولأن العلوم الدنيوية لايتوقف علي معرفتها صلاح المعاش والمعاد ،ولكنه في هذا الفصل يؤكد علي اشتمال القرآن علي كثير من الإشارات التي تتضمن هذه العلوم ويعزوها جميعا إلي أفعال الله التي تخرج منها سائر الكائنات في الوجودفي عدم ذكر هذه الأشياء من وجهة نظر الغزالي أنها كثيرة ، بل وأكثر من أن تحصي أو تعد لأن بحر الأفعال لاساحل له وأن البحـــر(لو كان مدادا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) [١]

ويري الغزالي أن الله سبحانه وتعالي يعطي كل عصر من هذه العلوم بقدر ماينفع الناس فيه ، ولذلك هناك علوم اندر ست وعلوم حاضرة ، وهناك علوم في مكنون علم الله لاتنكشف الإ في وقتها ولايعرفها علماء اليوم ، والواقع يؤكد صحة وجهة نظر الغزالي، فالعلم الذي نعرفه اليوم لم يكن القدماء يعرفون عنه شيئا ، ومازال العلم يظهر الجديد كل يوم ، وقد يأتي أناس بعدنا يرون أن العلم الذي نعتقد اليوم أنه غاية التقدم هو علم متأخر بالقياس إلي ماسيكون في أيديهم من مستحدثات علمية .

---

(١) جواهر القرآن /٢٦ .

والقرآن من وجهة نظر الغزالي يحوي كل هذه العلوم ، ولكن حقيقة الأمر لاتظهر واضحة جلية إلا لمن فهم الحقيقة الروحية للقرآن ومايتضمنه من إشارات لكنها تغيب عمن يقف عند ظاهر اللفظ وصورته الوضعية ، ويضرب مثالا لذلك بالقلم فيقول "هذا القلم روحاني إذ وجد فيه روح القلم وحقيقته ولم يعوزه إلا قالبه وصورته ، وكون القلم من خشب أو قصب ليس من حقيقة القلم " [1]

ويبدو أن الغزالي هنا يربط بين ماأطلقه (حقيقة القلم) وبين وظيفته ، فهو وسيلة المعرفة كما أنه وسيلة الخلق والابتكار ،وإذا كان القلم إلهيا فإنه لايعني قلما ماديا يمسكه الله سبحانه وتعالي ليكتب به ، بل إنه أداة الخلق والمعرفة " الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم"[2] ويوضح هذا المعني قوله في الآية قبل الأخيرة من سورة يس (تكرر هذا المعني كثيرا في القرآن) " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " أما إذا كان القلم بشريا أي أداة في يد البشر فإنه وسيلة وأداة لاغاية في ذاتها ، وليست العبرة فيه بالمادة التي صنع منها ، وأيا ماكان القلم ومادته وقيمته فان قيمته الحقيقية تنبع من أنه أداة للخلق والمعرفة ، أداة لخلق الأفكار وتوصيلها إلي الآخرين لتتحقق لهم بذلك المعرفة ولولا القلم ماعرفنا أفكار السابقين ولااستطعنا التواصل معهم ، ولاعرف اللاحقون أفكارنا ومعارفنا أو ماعرفونا أصلا وهذه هي حقيقة القلم لاحده .

---

(١) المصدر السباق / ٣٠ .

(٢) العلق / ٤،٥

ونحن نتفق مع الغزالي في أن القرآن يحمل في طياته كل هذه الدلالات والمعاني ، ونعجب ممن يقفون مع القرآن أو ضده عندما يثبتون عند النص ، فالذين يقفون معه يجمدون النص عند ظاهره ويسلبونه كثيرًا من دلالاته بل يفقدونه هيبته وجلاله ، والذين يقفون ضده يتعاملون مع النصوص بمعيارين ، يأخذون في الاهتمام بالنصوص البشرية ويبذلون قصاري جهدهم في تحميلها دلالات كبيرة سواء قصدها مبدعوها أم لم يقصدوا ، فإذا مااقتربوا من النص القرآني عاملوه معاملة أخري غير عادلة ، ولم يكلفوا خاطرهم بالبحث عن هذه الدلالات ، ويستندون في ذلك إلي مواقف الفريق الآخر ، مع أن عطاء النص القرآني المتجدد علي مدي سنوات طويلة واستمراريته طوال هذا الزمن ، وفيضه المستمر لكل الآراء والمذاهب والنحل دليل قوي علي ثرائه وعلي حقيقة ماذهب إليه الغزالي من تضمين القرآن لهذه العلوم حتي وإن كان ذلك عن طريق الإشارات ، يقول الغزالي " ولايستبعد أن يكون في القرآن إشارات من هذا الجنس ، وإن كنت لاتقوي علي احتمال مايقرع سمعك من هذا النمط مالم تسند التفسير إلي الصحابة ،فإن كان التقليد غالبا عليك فانظر إلي تفسير قوله تعالي كما قال المفسرون (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) الآية وأنه كيف مثل العلم بالماء والقلوب بالأودية والينابيع والضلال بالزبد ، ثم نبهك علي آخرها فقال كذلك يضرب الله الأمثال ، ويكفيك هذا القدر من هذا الفن فلا تطيق أكثر منه (وبالجملة) فاعلم أن كل مايحتمله فهمك فإن القرآن يلقيه إليك علي الوجه الذي لو كنت في النوم مطالعا بروحك اللوح المحفوظ لتمثل ذلك لك بمثال مناسب ويحتاج إلي التعبير " (١)

---

(١) جواهر القرآن /٣٠ ، ٣١

وهكذا يشير الغزالي إلي أن القرآن يعطي كل قارىء أو مفسر بحسب فهمه ، وهذا نفسه ينطبق علي اختلاف مذاهب التفسير ، وفي الوقت نفسه يشير إلي مفهوم نقدي إزاء النصوص الأدبية التي تتعدد بتعدد القراء ، فالنص يكون واحدا من حيث النشأة ولكنه يصبح كثرة من النصوص بتعدد قرائه ومفسريه ، وإذا كان هذا ينطبق علي النص الأدبي فما بالنا بالنص القرآن الدستور الدائم الصالح لكل زمان ومكان.

– ٥ –

إذا كان الغزالي يمثل الإطار النظري الذي انطلقت منه فكرة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في العصر القديم ، فإن الإمام الفخر الرازي الذي جاء بعده بنحو قرن من الزمان يمثل الجانب التطبيقي لهذه الفكرة في تفسيره الكبير المسمي بمفاتيح الغيب ، وهو التفسير الشامل الذي استوعب كثيرا من العلوم والمعارف ، بالاضافة إلي المنهج العقلي الذي انتهجه المؤلف فيه بصورة لم يسبق إليها ، ونحن لن نخوض في الحديث عن هذا التفسير وفضائله ومنهجه ، فقد انعقدت دراسات متعددة حول ذلك ، إلي جانب الإشارات المختلفة التي وردت في الكتب التي تناولت تاريخ التفسير ، ولكن حديثنا سينصب علي الجانب الذي لم يأخذ حقه في هذه الدراسات،وهو الجانب الذي يهمنا في هذه الدراسة ، والخاص بذكر المسائل والموضوعات العلمية .

وقبل أن أدخل في تفصيل الحديث عن هذه القضية هناك ملاحظة مهمة أود أن أشير إليها ، وهي أن للرازي كتابا آخر حول القرآن الكريم بعنوان (أسرار التنزيل وأنوار التأويل) نشرته وزارة الأوقاف والشئون الدينية

بالعراق ، وحققته لجنة من ثلاثة علماء أكدوا في مقدمة الكتاب صحة نسبة الكتاب إلي الرازي ، بعد طرح كافة الدلائل والآراء التي تؤكد ذلك [1]

ولكن هذه اللجنة لم تذكر تاريخ تأليف الكتاب وموقعه بين كتب الرازي وتصانيفه ، ولم تطرح مجرد التساؤل : هل ألفه قبل التفسير أو بعده؟ وربما كان ذلك لايهم اللجنة ، وإنما يهمنا نحن لأن الكتاب بالرغم من أن اللجنة التي قامت بتحقيقه ذكرت في مقدمتها للتحقيق ، وفي معرض الثناء عليه أنه "في علم أصول الدين والذي يمثل عصارة فكر الرازي ونضوجه الثقافي وخلاصة بحوثه الكلامية المنصبة علي مبحث الذات تقديسا وبرهانا [2] ، الا أن القارىء المدقق للكتاب يجد أنه داخل في إطار التفسير حسب المنهج الذي سلكه الرازي في تفسيره الكبير بصورة واضحة فعندما يأتي با لآية الدليل علي القضية المطروحة يأخذ في تحليلها بالطريقة التي يتعامل بها مع النص القرآني في مفاتيح الغيب .

---

(١) هناك كتاب بعنوان (أسرار التنزيل) حققه عبد القادر أحمد عطا ونشرته دار المسلم بمصر بدون تاريخ ، وفي الحقيقة فإن ما أشارت إليه اللجنة المحققة لكتاب "أسرار التنزيل وأنوار التأويل " الذي بين أيدينا ، من أن الكتاب الذي حققه عطا هو مختصر للكتاب الكبير ليس صحيحا تماما انما هو في الحقيقة جزء من هذا الكتاب ، ربما توقف الناسخ عنده ولم يكمله ، أو ربما كان قاصدا هذا الجزء فقط دون بقية الكتاب ، بل يمكن أن نقول انه مختصر لهذا الجزء ومن يريد أن يستوثق من هذا فليرجع الي الكتابين ويقارن وسيجد أنه مختصر وليس الجزء كله .

(٢) الرازي / أسرار التنزيل / تحقيق محمود احمد محمد وآخرين / وزارة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق ١٩٨٥

ومع ذلك فإننا لانملك دليلا واضحا للقول بأسبقية أحدهما علي الآخر رغم وجود بعض التوافقات في الرأي والتي سنضرب لها بعض الأمثلة ،وإن كانت مفصلة بعض الشيء في أسرار التنزيل ، وذلك أمر منطقي لأنه يركز علي القضايا التي أراد أن يطرحها من خلال القرآن الكريم ، ولكنه لم يشر إلي كتاب التفسير ، كما لم يشر في التفسير إلي هذا الكتاب مثلما فعل الغزالي مثلا في الاحياء وفي جواهر القرآن حيث يذكر أنه ذكر هذا الأمر في الكتاب كذا ، أو يحيل علي ماذكره في الكتاب الآخر ، وبذلك يمكن معرفة أسبقية أحدهما علي الآخر .

قد يطرح تساؤل ؟ وما علاقة ذلك بالموضوع الذي نحن بصدده وهو التفسير العلمي ؟ إن الإجابة علي هذا التساؤل هينة ، من خلال استعراض الكتاب ، فمعظم الأدلة التي ساقها علي القضايا المطروحة كانت من الآيات الكونية التي جعلها أدلة علي الوجود والوحدانية والتنزيه ، والذات والصفات وخاصة الأفعال وتأثيرها في الكون سماء وأرضا ومخلوقات ، ومن ثم تصبح الصلة قوية بين الكتاب وبين موضوعنا كما هي بينة في مفاتيح الغيب .

ولم نبالغ حينما ذكرنا أن الرازي تأثر بالغزالي ، وقلنا إن مافعله في التفسير وفي أسرار التنزيل يعد تطبيقا لما سبق إليه الغزالي ، ويتضح ذلك من أول الكتاب إذ يبدأ الرازي في الخوض في مسألة العلم وشرفه وبيان أشرف العلوم ، صحيح أن المنطلق مختلف ، فالغزالي يري كما سبق أن ذكرنا - أن أشرف العلوم علم معرفة الله ، وذلك حسب منهجه الصوفي ،

لكن الرازي يحول الدقة تجاه علم الأصول ، وإن كان المضمون لايختلف كثيرا لأنه يري ان أن مؤدي علم الأصول في النهاية هو معرفة الله ، حتي الدليل الذي استند اليه الغزالي في تفوق عدد آيات معرفة الله ذاتا وصفات يستخدمه الرازي ايضا يقول " أما أنه لابد في النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله العلي وصفاته الحقة لايكون من أهل النجاة بالإجماع ، وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقة فلأن الإنسان قبل البلوغ لايكون مكلفا بشيء من الاعمال ، فإذا بلغ وقت الصحوة ففي هذه الساعة لم يجب عليه شيء من الصلوات والزكوات والصيامات ، وسائر العبادات ، فلو مات في هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد لقي الله مؤمنا حقا ، ولو قدرنا أن هذا الذي بلغ كان امرأة ثم لما بلغت حاضت وبقيت مدة أخري في البلوغ وهي غير مكلفة لابالصلاة ولابالصيام ولابالقراءة ، فإذا انقضي زمان حيضها ماتت فهي قد لقيت حضرة الله تعالي مؤمنة حقا فعلمنا أن النجاة واستيجاب الدرجات لايتوقف علي الفقه وهي موقوفة علي معرفة الاصول [1]

ونطق أن الرازي يقصد بالأصول هنا المبادىء الأساسية للعقيدة المتمثلة في معرفة ذات الله وصفاته إذ يري أنها الأساس ، وذلك علي خلاف مايذهب إليه أهل السنة من تركيز علي الفقة الذي يرون أنه أساس في العقيدة ، وكما جعل الغزالي الفقة في مرتبة دنيا ، وعده من علوم القشر لا من علوم الصدف ،وكما جعله من العلوم الدنيوية لعلاقته بسلوكيات الناس،

(١) أسرار التنزيل ١ ، ٢٩

فان نص الرازي هذا يعطي المضمون نفسه ، فقد تحصل النجاة كما يمكن الحصول علي الدرجات بدون الفقه .

ويدلل الرازي علي صدق مايقول بأمر آخر هو " أن الآيات المشتملة علي دلائل علم الأصول أشرف من الآيات المشتملة علي دلائل علم الفروع بدليل أنه جاء في فضل "قل هو الله أحد " " وآمن الرسول " وآية الكرسي "و" شهد الله " مالم يجيء مثله في فضل قولة تعالي "ويسألونك عن المحيض " " أحل الله البيع " " و " ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين " ولذلك فان الزهاد والعباد مواظبون في شرائف الأوقات علي قراءة هذه الآيات المشتملة علي الإلاهيات دون الآيات المشتملة علي هذه الاحكام"[1] .

وإذا كان المنطلق مستندا إلي أدلة موضوعية صحيحة فإن هذا المنطلق ينبع من رؤية خاصة تتوافق مع منطلقات الغزالي الذي ينتمي - كما تدل كتاباته - إلي المذهب الفكري المعروف باسم التصوف السني ، وإذا كان الرازي لايذكر هذا صراحة فإن أفكاره المطروحة في كتبه تشي بذلك ، وكلاهما أيضا متكلم خاض علم الكلام وألف فيه كتبا علي المذهب الأشعري ، وهو المذهب الذي سعي جاهدا إلي التوفيق بين المذاهب الفكرية الإسلامية ، وكلاهما شافعي المذهب الفقهي ، وكما نعلم فان الشافعي كان مجتهدا لم يقف عند النصوص كما هي بل ركز علي روح النص ، وأفاد من ذلك في آرائه الفقهية التي كانت تتسم دائما بالرحابة واتساع الأفق والإحاطة بكل ظروف الحياة حوله .

---

(١) المصدر السابق والصفحة نفسها

وكما انطلق الغزالي في حديثه عما يتضمنه القرآن من إشارة علمية من منطلق بحثه في الالهيات فان الرازي سار علي الدرب نفسه ويدأ من الالهيات واستغرق في الاستدلال عليها بكل ماأمكنه وتملكه من علم وعلوم أتقنها وأفاد منها في كتابيه " أسرار التنزيل وأنوار التأويل " و " مفاتيح الغيب " .

قسم الرازي كتابه "أسرار التنزيل " قسمين : القسم الأول : مايتعلق بالأصول ويقصد بها معرفة الله ذاتا وصفات ، ويتركز الحديث في هذا القسم علي مسألة التوحيد ، ويتناول فيها كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " باستقصاء شامل من مرادفات للفظة (التوحيد) والأشياء التي شبه الله تعالي كلمة التوحيد بها إلي المباحث اللغوية المتعلقة بالعبارة الدالة علي "التوحيد " ، وانتهاء بالأحكام الفقهية المأخوذة من العبارة نفسها ، ويؤكد هذا التفصيل فيما اشتملت عليه العبارة من الأسرار والفوائد ماذهبنا إليه من أن منطلقه كان الالاهيات ، حتي عنوانه لهذا القسم بالأصول فإن الأصل هو القاعدة التي ينطلق منها الحديث .

أما القسم الثاني من الكتاب فقد خصصه للدلائل علي إثبات الصانع سبحانه وتعالي وكلها دلائل مأخوذة من السموات والأرض ومافيهما ومايحيط بهما من مظاهر طبيعية متدرجا من البدء بالحديث عن مبدأ تكوين السماوات منطلقا من معني الرتق والفتق ، ومرورا بكل مايتعلق بالسماوات من صفات ، ثم منتقلا إلي الأرض بما فيها من مظاهر الحياة ، وانتهاء بالاستدلال بأحوال الأنعام علي قدرة الله وعظمة صنعه في الكون

الذي خلقه بقدرته ، ومن الطبيعي أن يشتمل الحديث علي المظاهر الطبيعية سواء في السماء أو في الأرض كل ذلك في إطار المبدأ الذي أرساه في الفصل الأول أو ربما نستطيع أن نقول إنه محاولة للصعود إليه من خلال أدلة مادية تثبت وجوده ووحدانيته بعد ما أثبتها نصيا ونظريا في القسم الأول ، وقد لانبالغ إذا قلنا إنها محاولة لإثبات التفاعل القائم بين الذات والصفات يقول الرازي (ثم لما مدح المؤمن وذم الكافر والمنافق كأنه قيل هذا المدح والذم لايستقيمان الا بتقديم الدلائل علي أسباب التوحيد والنبوة والمعاد فان أصول الإسلام في هذه الثلاثة فلهذا بين الله تعالي الحجج والأصول الأربعة بخمسة أنواع من الدلائل :

اولها : أنه تعالي استدل علي التوحيد بأنفسهم وإليه الأشارة بقوله (ربكم الذي خلقكم) .

وثانيها : بأحوال آبائهم وأجدادهم وإليه الإشارة بقوله (والذين من قبلكم) .

وثالثها : بأحوال الأرض واليه الإشارة بقوله (جعل لكم الأرض فراشا)

ورابعها : بأحوال السماء وإليه بقوله : (والسماء بناء)

وخامسها : الأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض وإليه الإشارة بقوله (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) فان السماء كالأب والارض كاالأم تنزل قطرة من صلب السماء إلي رحم الأم فيتولد منها أنواع النبات [1]

---

(١) المصدر السابق ٢٣،٢٢

ويوضح هذا النص إلي أي مدي كان وضوح المفهوم لدي الرازي فهو يري في هذه المظاهر الكونية والطبيعية دلائل علي إثبات التوحيد لله بذاته وصفاته ، وأنه الصانع وحده لهذه المظاهر ، ولايقف الأمر بالرازي عند هذا الحد بل يشير إلي نقطة أخري توحي بمدي استيعابه للنص وهي أن ترتيب هذه الدلائل علي هذا النحو المحكم ليس عفويا بل إنه ترتيب حسن مفيد في التعليم من الأظهر فالأظهر مرتقيا من الأخفي فالأخفي[1] ثم انه متدرج لأنه يبدأ من النفس (ربكم الذي خلقكم) وذلك " لأن اطلاع كل واحد علي نفسه أتم من اطلاعه علي أحوال غيره : ثم هذه المرتبة يتلوها مرتبة أخري وهي علم كل واحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده " ثم تتلوها مرتبة ثالثة "وهي علم الانسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق فإنها مختلفة الأجزاء " يتلوها مرتبة رابعة " وهي العلم بأحوال الأفلاك " وهي إشارة إلي السماء (والسماء بناء) ثم تأتي المرتبة الخامسة والأخيرة وهي التفاعل الحادث بين السماء والأرض (وأنزل من المساء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم " ويختتم هذا العرض بقوله " وإذا عرفت دلك ظهر أن لله تعالي في ترتيب هذ الدلائل الخمسة وتقديم بعضها علي بعض حكما بالغة وأسرار مرعية فسبحان من لانهاية لعلمه ولاغاية لحكمته "[2] .

---

(١) المصدر السابق /٢٣

(٢) راجع المصدر السابق /٢٣،٢٤،٢٥

ومن اللا فت للنظر أن الرازي حينما بدأ في تفصيل هذه الدلائل في القسم الثاني من الكتاب فيخصص الباب الأول منه للحديث عن السماء وأحوالها كدليل علي وجود الصانع ويقسمه إلي فصول ؛ ويبدأ بالحديث من معني الرتق والفتق ثم يتحدث عن مبدأ تعددها ، ويتكلم بعد ذلك عن صفاتها مثل بقائها في جو الهواء ورفعتها وأنها مطويات بيمينه وأنها مخلوقة بالحق وبشدة وأنها سقف ، وأنها قبلة الدعاء ويختتم هذا الباب بفصل عن الاستدلال بأحوال الأرض علي وجود الصانع .

ويأتي الباب الثاني ليتحدث عن الدلا ئل المأخوذة من الشمس والقمر والنجوم ، ويتحدث الباب الثالث عن خلق الانسان وكيفية الاستدلال به علي وجود الصانع الحكيم وينهي هذا القسم بالباب الرابع وقد خصصه للحديث عن الحيوانات والاستدلال بها علي قدرة الصانع الحكيم .

وربما كان السبب وراء هذا التقسيم أن الرازي يري في السماوات ومظاهرها صورة أكبر إعجازا لتفيكر البشر حيث إنها بعلوها وإحكام بنائها ومافيها من أفلاك ومظاهر تعد فوق قدرة البشر ومن الصعب الوصول إليها فتكون أوضح مثلا علي قدرة الصانع خاصة إذا نظرنا إلي الموضوع من خلال عصر الرا زي ، بل حتي في عصرنا المسمي بعصر الفضاء فالسماء بما فيها مازالت أسرارها فوق طاقة العقل البشري ، كما أنها مازالت مكنونة إلي حد بعيد عن نظرياته وبراهينه التجريبية ، أما الأرض فتأتي في المرتبة الثانية بعد ذلك حيث إنها قريبة من الإنسان ، ويمكن محاولة فهم كثير من أسرارها ، أما خلق الإنسان فإنه يعد أكثر وضوحا لأنه قريب من نفسه ويعلم

إلي حد كبير كثيرا من الأسرار التي تقود حركته ، ثم يأتي في النهاية الحيوان الذي تكاد تكون أسراره كلها مكشوفة إلي حد كبير ، ولعل هذا مادفعه أن يقول في ترتيب الدلائل في القسم الأول إنه يرتقي من الأظهر فالأظهر إلي الأخفي فالأخفي .

ولنا في النهاية بعض الملاحظات علي الكتاب - في إطار موضوعنا - وأولها إن الكتاب كله يسير في إطا ر موضوع محدد وهو إثبات قدرة الله وفاعليته في الكون لينتهي منه في النهاية إلي إثبات وجود الخالق ، وكأنه إجابة للسؤال المطروح دائما من المتشككين في وجود الله سبحانه وتعالي .

ثانيها : أن الرازي يحاول بكل الوسائل الاستفادة من معطيات العلم الذي وصل إليها عصره مايوحي بسعة اطلاعه علي هذه المنجزات العلمية .

ثالثها : أن بعض المقولات تتكرر عنده وذلك حينما يتعرض للموضوع نفسه في إطار برهان أو دليل جديد له علاقة بما سبق من أدلة ، وبالرغم من محاولته التجديد الذي كانت تساعده فيه قدرته الفائقة في علم الكلام ، وفي الاستدلال والاستنتاج ، وخاصة فيما أشار إليه في القسم الأول مجملا وفصله في القسم الثاني .

رابعها : أن الرازي متأثر إلي حد كبير في هذا الكتاب بمعرفته الصوفية والمتصوفة الذين لهم مكانة عنده فكثير من استدلالاته خاصة في باب الالاهيات يعتمد علي أقوال المتصوفة مثل الشبلي الذي يكثر من إيراد أقواله والرويات المروية عنه وينقل عن الغزالي - كما أشرنا سابقا - بل أنه يستخدم بعض مصطلحاتهم وأساليبهم مثل الرؤيا والمنام وغيرها .

خامسها : أن الرازي يسير في هذا الكتاب علي منهجه الاستنباطي المعروف والذي اتبعه في تفسيره فيبسط المسائل ، ويفرع منها الفروع وذلك مثلما فعل مع تفسير كلمة لا اله إلا الله فبعد أن طرح وجوها خمسة لتفسيرها طرح ثلاثة عشر وجها في خاتمة المجلس .

وفي النهاية فان هذا الكتاب وإن كان قد سمي بأسرار التنزيل وأنوار التأويل فان مضمونه يوحي بأن هذه الأسرار والأنوار ليست إلا أسراراً علمية ربما كان انتماؤه إلي أهل السنة الذين كا نوا يرفضون توجيه القرآن مثل هذا التوجيه سببا من أسباب تحرجه في الإشارة إلي هذا المفهوم الذي يغلب علي الكتاب ، وربما كانت النظرة إلي العلم باعتباره أحد فروع الفلسفة ، أو أحد مشتقاتها سببا آخر . إذ إن الفلسفة بالرغم من انتشارها وإثبات مكانتها علي أرض الواقع في ذلك الوقت ، كانت موضع شك وريبه باعتبار ما أشيع عنها من تعارضها مع الدين . ومن ثم فليس من المعقول أن يعنون الكتاب بها ، ومع هذا فان عنوانه الذي اختاره له يوحي بأنه سيطرح رؤية خاصة لم يتحدث فيها أحد قبله ولذلك عدها أسراراً ،وعدّ الوصول إليها واستخراجها لإفادة الناس بمثابة أنوار فعنون الكتاب بـ "أسرار التنزيل وأنوار التأويل" ليوحي بهذه الخصوصية والتي كان مدارها علي هذه الدلائل الكونية المذكورة في القرآن .

جاء تفسير الرازي في ثماني مجلدات ضخمة حسب طبعته الأولي القديمة [١] وهو إنتاج ضخم بمعني الكلمة ، ويرجع ذلك إلي أسباب منها : سعة اطلاع المؤلف التي فاقت الحدود وشملت معارف كثيرة يشهد بها كتابه ومنها القدرة الفائقة لدي الرازي علي استنباط المسائل المتنوعة من الآيات والألفاظ القرآنية ، والتي كانت نتيجة طبيعية لانتهاجه منهج المتكلمين الذين يتمتعون بقدرة كبيرة علي تفريع المسائل من الأصول ثم يفرعون علي الفروع ، وبالرغم من أن هذا المنهج كانت له سلبياته إذ يصعب علي المتلقي البسيط استيعابه إلا أن فوائده كانت أكبر حيث أدت إلي إثارة العقل العربي ، وحفزت قدرته علي الابتكار .

وقد أثار الذهبي في كتابه " التفسير والمفسرون " مسألة خطيرة لم ينته فيها إلي رأي [٢] ، وهي " هل أتم الرازي هذا التفسير ؟

وذكر أقوال القدماء مثل ابن خلكان ، وحاجي خليفة وما نقلاه عن غيرهم ممن سبقوهم ، واختتم حديثه في هذه المسألة بقوله "والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب " هو أن الامام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلي سورة الأنبياء" .

---

(١) جاءت الطبعة الحديثة التي أصدرتها دار الغد العربي ١٩٩٠ في ١٦ مجلدا ضخما وهي محققة وحيدة ولذلك سترقم اشارتنا من الكتاب بها لما في ذلك من تسهيل علي القاريء الذي يريد الرجوع إلي هذا الموضع .

(٢) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون طبعة ٣ مكتبة وهبة ١٩٨٥ط،٢٩٧-٢٩٩

فأتي بعده شهاب الدين الخوبي ، فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه ، فأتي بعده نجم الدين القمولي فأكمل مابقي منه ، كما يجوز أن يكون الخوبي أكمله إلي النهاية ، والقمولي كتب تكملة أخري غير التي كتبها الخوبي وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون[1].

ولانعرف بالضبط كيف انتهي الذهبي إلي هذا الرأي إلا أن يكون اعتمادا علي النقول من المصادر المختلفة ، ومن ثم يعود ويتراجع عن هذا القول فيقول " أقول هذا وأعتقد أنه ليس حلا حاسما لهذا الاضطراب وإنما هو توفيق يقوم علي الظن ، والظن يخطيء ويصيب " وإذا كانت المسألة بهذه الصورة من الظن فلماذا أشار إليها ؟ ومادام قد أشار إليها فلماذا لم يمحصها ويصل فيها إلي حل يريح القاريء . ويعود فيشير إشارة مهمة لها مغزاها ليقول " ثم إن القاريء في هذا التفسير ، لايكاد يلحظ تفاوتا في المنهج والمسلك ، بل يجري الكتاب من أوله علي نمط واحد ، وطريقة واحدة تجعل الناظر فيه لايستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة ، ولايتمكن من الوقوف علي حقيقة المقدار الذي كتبه الفخر والمقدار الذي كتبه صاحب التكملة " [2] .

---

(١) انظر التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٩

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها

ولو أن الذهبي سار في هذا الاتجاه لحل المسألة ، إذ إن الكتاب كله منهج واحد ومسلك واحد ، وربما كان سبب هذه الروايات التي رويت عنه من عدم تكملة الكتاب يعود إلي خصومه الذين وصل بهم الأمر إلي اتهام كتابه "إن فيه كل شيء إلا التفسير" ، كما أن هذه الروايات ليست مصدر ثقة يمكن الحكم بها علي صحة نسبة كتاب ، فما أكثر الروايات التي تضمنتها هذه الكتب ، ولو أننا أمعنا النظر في الجزء الذي يقال انه لم يكمله نجده يسير بنفس الأسلوب الذي جري به الجزء الأول ، بل إنه يشير في هذا الجزء الأخير إلي من أخذ عنهم العلم كما كان يفعل في الجزء الأول فمثلا يقول عند تفسيره للآية الكريمة " الذين يظاهرون منكم من نسائهم .. إلخ " (المجادلة /٢) قال القاضي حسين من أصحابنا إنه يقال : إن أردت الخلاص من التحريم ، فأسلم وصم"[١] ومعروف أن أحد شيوخه الذين تلقي العلم عنهم القاضي حسن المروزي . والغالب أن تكون هذه إشارة إليه .

ولنا سند آخر في نسبة الكتاب إلي صاحبه أن ظل طوال هذه الفترة الزمنية التي ليست بالقصيرة حتي وصل إلينا ينسب إلي الرازي ، فهل غفل أهل تلك الأجيال عن هذه الحقيقة ؟ ولماذا لم يشر واحد من الناسخين أو المحققين إلي هذه المسألة في صدر الكتاب إليها ؟

---

(١)مفاتيح الغيب جـ١٥/٤٢٥

وأيا ماكانت المسألة فاننا أمام فكر الرازي ، وسواء هو الذي أكمله كتابة وإملاء - خاصة أن كثيرين من العلماء الكبار القدماء لم يكونوا يكتبون بأيديهم ، بل يملون علي تلاميذهم - وقد يكون الخلط راجعا إلي مسألة الإملاء ، وربما يكون قد أملي علي تلميذه الخويي [1] في أخريات أيامه ، ولم يتمكن الأخير من إكمال نسخ الكتاب إلا بعد وفاة أستاذه الرازي ومن هنا حدث الاضطراب في الأمر .

وقد يكون الاختصار في المسائل والذي كان طابع الأجزاء الأخيرة سببا آخر في هذا الموضوع ، وإن كنا نعتقد أن هذا أمر منطقي إذ إن كثيرا من المسائل قد أفاض فيها في تفسير للأجزاء الأولي ومن ثم لاتصبح هناك حاجة إلي الإفاضة فيها مرة ثانية .

---

(١) بالمناسبة يذكر جولد تسيهر في مذاهب التفسير الإسلامي أنه تلميذ شمس الدين الخويي قاضي قضاه دمشق /١٤٦

يأخذ الرازي في تطبيق ماطرحه في كتابه " أسرار التنزيل وأنوار التأويل " علي تفسيره الكبير ، إذ يحاول إبراز أسرار هذه المعجزة الالهية الكبري فيستقصي كل مايمكن فهمه واستنباطه من خلال استقرائه لآيات القرآن الكريم ، وهي في حقيقتها لاتخرج عن إطار المنطلق الذي انطلق منه لبيان أسرار هذه المعجزة بكل جوانبها اللغوية والفقهية والفلسفية ، ومن الطبيعي أن يتعرض للإشارات الكونية باعتبارها أولا أحد نواتج الفلسفة وثانيا أحد أركان الإعجاز الإلهي من حيث كونها دالة علي وجوده ، وعلي قدرته وهيمنته علي حركة الكون الذي خلقه .

ويبدأ الرازي تفسيره بالحديث عن الاستعاذة والفاتحة ، ويجمل القول فيهما ثم يأخذ في التفصيل حيث يخصص الكتاب الأول للعلوم المستنبطة من قوله (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ثم يخصص القسم الأول من هذا الكتاب للمباحث المتعلقة باللغة والإعراب ، وفي هذا القسم يطرح الرازي رؤيته للغة بكل مكوناتها ومدلولاتها ، ونعتقد أن هذا المدخل مهم جدا من زاويتين : أولا : أنها تعد أساسا مهما من أسس تأويله للقرآن .

ثانيا : إنها تكشف عن جانب مهم في فكر الرازي وهو الجانب اللغوي، الذي يعد به الرازي عالما لغويا كبير [1] خاصة أن الرازي في هذا القسم لم يطرح آراء اللغويين العرب المعروفين ، بل أدلي بدلوه أيضا مناقشا أحيانا ومنفردا برأي أحيانا أخري .

(١) نأمل إن شاء الله أن نفرد لهذه المسألة بحثا مستقلا عن "الرازي العالم اللغوي " يتناول جهوده اللغوية سواء كانت مستقلة أو من خلال استخداماته لها في التفسير .

ونصل إلي الجانب المهم في تفسير الرازي - وهو الجانب المعني في بحثنا هذا - أي إسهام الرازي في تفسير الإشارات الكونية في القرآن الكريم ، أو مايطلق عليه التفسير العلمي للقرآن الكريم ، وقد أفاض في هذا الدرجة شعر هو نفسه بأنها قد تؤخذ عليه فيبررها بقوله " وربما جاء بعض الجهال والحمقي ، وقال : إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم ، وذلك علي خلاف المعتاد ، فيقال لهذا المسكين : إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ماذكرته ، وتقريره من وجوه :

الأول : أن الله تعالي ملأ كتابه من الاستدلال علي العلوم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، وكيفية أحوال الضياء والظلام ، وأحوال الشمس والقمر والنجوم ، وذكر هذه الامور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة أخري فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزا لما ملأ الله كتابه منها .

الثاني : أنه تعالي قال (أفلم ينظروا إلي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج)فهو تعالي حيث علي التأمل في أنه كيف بناها ، ولامعني لعلم الهيئة إلا التأمل في أنه كيف بناها ، وكيف خلق كل واحدة منها [1] .

---

(١) مقدمة الكتاب ص٢٢ وقد ورد هذا النص في تقديم اللجنة المحققة للطبعة الأخيرة للكتاب وهو منقول من التفسير مج ٧ جـ ١٢٥/١٣

ومن هذا النص تفهم الأساس الذي استند إليه الرازي في إفاضته الحديث في هذه الأمور الكونية ، وهو أن تكرار ذكر الله لها في النص القرآني له دلالته ومغزاه باعتبارها أحد مثبتات الإيمان ، ومن هنا يأتي الوجه الثاني الذي طرحه الرازي أنها مدعاة للتأمل في قدرة الله كيف بني السماء باحكام شديد ووضع فيها زينتها ومباهجها ، ولما كان الرازي متكلما عقلانيا فانه أراد أن يصل بنا بطريق غير مباشر إلي أدلة عينية تثبت وجود الخالق بجانب الأدلة الغيبية المستمدة من الأخبار والنصوص القرآنية التي تعرفنا بالله وتخبرنا عنه وتدعونا إلي الإيمان به أي أنه يريد أن يبين أن العقل لايتعارض مع النقل بل لابد من تكاملهما علي طريق الإيمان بالله ليصلا في النهاية إلي المفهوم نفسه .

وقد أوضح الرازي ذلك مرارا عند تعرضه بالتفسير لهذه الآيات فلم يكتف بالحديث النظري المستمد من المستحدثات العلمية التي وصل إليها عصره ، بل كان دائم الإشارة إلي أنها دليل قدرة الصانع وعظمته في خلقه.

كما أنها تفيد في بيان نعمه علينا فتوجب علينا محبته ؛ يقول الرازي عند شرحه للأية (٢٢) من سورة البقرة (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء) وفي أحد وجوه الاستدلال (بل الغرض منها تحصيل العقائد الحقة في ا لقلوب ، وهذا النوع من الدلائل أقوي من سائر الطرق في هذا الباب ، لأن هذا النوع من الدلائل كما يفيد العلم بوجود الخالق فهو يذكر نعم الخالق علينا ، فان الوجود والحياة من النعم العظيمة علينا ، وتذكير النعم مما يوجب المحبة وترك المنازعة وحصول الانقياد [١] .

---

(١) مفاتيح الغيب مج ١ جـ ٢ /٤٨٧

أي أن هذا النوع من الاستدلال مزدوج الفائدة ، فبالإضافة إلي أنه يعد من وجهة نظره أقوي الدلائل ، لأنه يقوم علي محسوسات ومرئيات . وهي أقوي في الوصول إلي اليقين من الغيبيات ، فإن لها هدفا آخر وهو وجوب المحبة وحصول الانقياد لله تعالي ، وذلك قمة التعبير عن الإيمان وهو الهدف المنشود وراء هذه التفصيلات الدقيقة التي يوردها في تفسير هذه الآيات ، وكان هذا نفسه هو السبب في رده علي من أنكر عليه هذا الموقف .

وربما كان هناك سبب آخر وراء الخوض في هذه التفصيلات هو ذلك النزاع الذي كان سائدا بين الفلسفة والدين أو بعبارة أخري بين العقل والنقل، فقد أراد الرازي بهذا المنهج أن يرد علي الماديين الذين يرون تعارضا بين العقل والنقل أو بين المحسوس والغيبي .

ولذلك كان ينتهز فرصة تفسيره لهذه الآيات ليحاول من خلاله بيان شمولية القرآن واستيعابه لكل أفكارهم ، ومن ثم امتزج حديثه عن الظواهر العلمية بالنزعة الفلسفية والكلامية .

ولنضرب مثلا لذلك بتفسيره للآية (٥٤) من سورة الأعراف والتي استغرقت منه حيزا كبيرا جدا يقرب من العشرين صفحة من القطع الكبير في الطبعة القديمة [1] يمتزج فيها الحديث العلمي بالحديث الفلسفي ، وربما كان هذا الاستطراد هو السبب في وصف تفسيره باحتوائه علي كل شيء إلا التفسير ، لأن المسائل تتفرع بصورة كبيرة لدرجة يمكن أن تشغل القارىء عن النص الأساسي المراد تفسيره ليركز انتباهه في هذه القضايا التي استغرقتها هذه التفريعات .

---

(١) في ا لطبعة الجديدة مج ٧ ج١٣ من ص٩٣ حتي ص١٣٤ نحو ٤١ صفحة .

يبدأ الرازي في تفسير هذه الآية بقوله " اعلم أنا بينا أن مدار القرآن علي تقدير هذه المسائل الأربع وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر، ولاشك أن مدار إثبات المعاد علي إثبات التوحيد والقدرة والعلم ".[1]، وهذا الحديث خاص بالربط بين هذه الآية والسباق الذي وردت فيه حيث إنها جاءت بعد وصف موقف مهيب من مواقف يوم القيامة بين أهل الجنة و أهل النار وهو أمر غيبي يحتاج إلي دلائل مادية من الواقع لتصديق إمكانية حدوثه أتبع الله هذا الموقف بهذه الأيه لاشتمالها علي أمور منظورة من البشر وفي هذا يقول الرازي :

" فلما بالغ الله تعالي في تقرير أمر المعاد عاد إلي ذكر الدلائل الدالة علي التوحيد وكمال القدرة والعلم ، لتصير تلك الدلائل مقررة لأصول التوحيد ومقررة أيضا لإثبات المعاد" [2] .

وهنا نلحظ أمرا مهما وهو التفسير بالدلالة لابالمترادفات فقد عد مااحتوته الآية من مظاهر كونية دلالة علي وجود الخالق وقدرته ، ولم يفصل القول في معانيها ومرادفاتها لأنها لم تشمل ألفاظا يصعب فهمها ، وهو يسير علي ذلك في تفسيره ، فان كان فيها لفظ يحتاج إلي بيان جاء به في موضعه كمسألة من المسائل التي تشملها الآية ، وهو في بدايتها يذكر الأمور اللغوية ثم ينطلق إلي ماتحمله من دلالات فغي إطار الفكرة التي يريد أن يطرحها من خلال تفسيره للآية .

---

(١) مفاتيح الغيب مج ٧جـ ١٣ / ٩٣

(٢) المصدر السابق /٩٤

ولذلك لما بدأ في تفسير الآية بدأ أول مسألة من المسائل بحديث عن لفظة (ستة) يقول : "حكي الواحدي عن الليث أنه قال : الأصل في الست والستة سدس وسدسة أبدل السين تاء ، ولما كان مخرج الدال والتاء قريبا أدغم أحدهما في الآخر ، واكتفي بالتاء عليه ، فإنك تقول في تصغير ستة سديسة وكذلك الأسداس وجميع تصرفاته يدل عليه والله أعلم [1] .

وهي ملاحظة لغوية أدي إليها ذكر الرقم (٦) فقط ليشرح معناه أو أصله اللغوي ربما ليوضح لنا أنه يعتمد علي أصول ومعارف لغوية في حديثه ولايصدر من فراغ أو مجرد تفريع للمسائل ، وقد جاء بعده الحديث عن الخلق فذكر أن الخلق هو التقدير ، ويستطرد في ذكر هذا التقدير ليصل إلي الحديث عن الأفلاك والكواكب ، وفي كل جملة ينهيها بضرورة حاجتها إلي الله بكل ماله من أسماء حسني مثل " وذلك يدل علي افتقار خلق السماوات والأرض إلي الفاعل المختار " ولايحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر مختار " ، ولابد أن يكون لتخصيص القادر المختار " وذلك أيضا خلق وتقدير يدل علي وجود المخصص القادر " ، ويختتم حديثه عن هذه الأجرام والأفلاك " وعلي التقديرين فليزم كون هذه الأجزاء محدثة كان حدوثها مختصا بوقت معين وذلك خلق وتقدير ويدل علي الحاجة إلي الصانع القادر المختار [2].

ويأخذ في طرح أسئلته التي يطرحها بطريقة فلسفية ، لأنها تأتي في صورة تخيل أسئلة وهو الأسلوب الذي ينتهجه الفلاسفة من تخيل أسئلة للرد عليها وكل نقطة تبدأ بسؤال ثم تتفرع منه الأسئلة .

(١) المصدر السابق /٩٤.

(٢) نفسه /٩٤،٩٥

وكما أشرت آنفا قريبا فان طرحه لمرادفات الألفاظ يأتي ضمن حديثه عن المسائل ، ففي المسألة الرابعة يقول " في هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء لأنه تعالي قال : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) والمعني أن الذي يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلي حيث خلق هذه الأشياء العظيمة وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات ، ومن كان له مرب موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة ، فكيف يليق أن يرجع إلي غيره في طلب الخيرات أو يعول علي غيره في تحصيل السعادات ؟ ثم في الآية دقيقة أخري : فانه لم يقل أنتم عبيد - بل قال هو ربكم ، ودقيقة أخري وهي أنه تعالي لما نسب نفسه إلينا سمي نفسه في هذه الحالة الرب وهو مشعر بالتربية وكثرة الفضل والإحسان ، فكأنه من كان له مرب مع كثرة هذه الرحمة والفضل ، فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره ؟[1]

ونحن هنا بازاء تفسير لمعني كلمة "رب" لم يأت بطريقة مباشرة ، بل جاء مرتبطا بالإلحاح المستمر علي إنكار العبودية لغير الله ، ولم يسبق أحد من المفسرين أن ركز عليه بهذه الطريقة التي أبرزها الرازي ، وإن جاء الحديث هنا مختصرا فانما يرجع ذلك إلي تفصيله لكل جوانب التربية التي من أجلها سمي الله نفسه ربا حينما تصدي لتفسير قوله تعالي (الحمد لله رب العالمين) (الفاتحة) وربما كان الرازي متأثرا إلي حد كبير فيه بفكر المتصوفة الذين حرصوا كل الحرص علي تربية أنفسهم وأولادهم ومريديهم علي منهج اليقين بالله .

---

(١) نفسه /٩٩

ثم ينتقل بعد ذلك إلي قوله تعالي "ثم استوي علي العرش " وهي من القضايا التي أثارت جدلا في معناها ومضمونها بين الفرق الإسلامية المختلفة ، وينتهي منها وبعد الرد علي معظم المسا ئل المطروحة علي ساحة النقاش آنذاك ، ومن خلال الاستقراء تمتزج فيه الفلسفة بعلوم الهيئة والفلك، ينتهي إلي نفي الحيزية والحجمية عن الله سبحانه وتعالي ، يقول بعد هذا الاستقراء " وإذا كان الأمر كذلك أفاد هذا الاستقراء ظنا قويا أن حيث حصل كمال القوة والقدرة علي الإحداث والإبداع لم يحصل هناك البتة معني الحجمية والجرمية والاختصاص بالحيز والجهة ، وهذا وإن كان بحثا استقرائيا إلا أنه عند التأمل التام شديد المناسبة للقطع بكونه تعالي منزها عن الجسمية ، والموضع والحيز ، وبالله التوفيق .(١)

أي أن الاستغراق في ذكر هذه المسائل والتفاصيل عن حركة الأفلاك والأجرام بجانب أنها دليل علي قدرة الصانع فانها تستخدم للتدليل علي تنزيهه عن المطاعن والأوصاف التي حاول أصحاب الفرق المختلفة وصفه بها ، ومن هنا أصبحت لازمة ضرورية عنده ، وأن كان يميل في بعض الأحيان للانتصار لرأي المعتزلة الذي يتفق وطبيعته العقلانية والكلامية وباعتباره طريقا موصلا إلي اليقين يقول :إذا ثبت هذا فنقول: من الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم محدث وكل محدث فله محدث فحصل له بهذا الطريق إثبات الصانع تعالي وصار من زمرة المستدلين ، ومنهم من ضم إلي تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوي والعالم السفلي علي سبيل التفصيل فيظهر له في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرار عجيبة

---

(١) المصدر السابق /١٣

فيصير ذلك جاريا مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على عقله، فلا يزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان إلى برهان آخر، ومن دليل إلى دليل آخر، فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم فى تقوية اليقين وإزالة الشبهات، فاذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة، ونسأل الله العصمة. [1] وهذا نص خطير الدلالة على موقف الرازى فهو يسخر ممن يقصرون القرآن علي القضايا اللغوية، أو المعانى والاشتقاقات اللفظية مما يعده إخلالاً بالهدف الذي من أجله نزل القرآن، والذي يري أنه نزل لهذه الفوائد الإيمانية والأسرار الكونية التي عن طريقها يستطيع الخلق تعرف الخالق من خلال دعوته لهم للتأمل في الكون الذي من حولهم، وهو بالتالي يري أنهم يحجمون القرآن، ويحصرونه في مسائل نحوية ومترادفات لفظية، بالإضافة إلي الحكايات الفاسدة "ربما يقصد الاسرائيليات" ومعني هذا أنه لا يرضي عما فعله المفسرون السابقون، وبالتالي يوضح أنه يطرح رؤية جديدة للقرآن يري أنها الأجدر به، وهو ما طبقه فعلاً في تفسيره فلم يقتصر علي ذكر معاني الكلمات أو وجوه القراءات أو استخراج الأحكام بل جمع كل هذه العلوم بالإضافة إلي رؤي فلسفية ومناقشات كلامية تثبت الوحدانية والقدرة من خلال تفسير الآيات التي تتضمن البراهين العقلية علي وجود الله وعلي وحدانيته وعلي جميع صفاته، وبالطبع لابد أن تشتمل هذه الدلائل علي الإشارات الكونية ومن هنا جاء تفسيره موسوعة كبيرة يمكن أن يرجع إليها طالب المعرفة في كثير من الأمور.

---

(١) نفسه / ١٢٧

نلاحظ فعلاً أن الرازي أكثر من ذكر سائل الهيئة والفلك، وكان يقف عند كل آية فيها إشارة إلي السماء وما فيها، والأرض وما فيها، ليشرح كيف يدل هذا علي وجود الصانع والقادر والمختار وغير ذلك من الأوصاف التي طرحها؛ ولو تأملنا مثلا تفسيره لقوله تعالي : (ياأيها الناس اعبدو ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) (البقره/ ٢١،٢٢) نراه يتدرج في تفسيره لها بدءا من تحويل الحديث من الغيبة إلي الحضور ومروراً يذكر العبودية وهل هي أمر بالتكليف مفروض علي الناس كافة أم خاص بالمؤمنين بما في ذلك رده علي منكري التكليف، ثم شارحاً لماذا ترقي في ذكر الأشياء الدالة علي وجوده وفي الوقت نفسه علي قدرته مبينا أنه بدأها (بخلقكم ؛ ثم (والذين من قبلكم) ثم (السماء) و(الأرض) و(المطر) وأثره في الأرض باعتباره حاصل تفاعل السماء مع الأرض، وفي أثناء ذلك يبث معارفه في كل مسألة، ويطرح ما يمكن أن يتصوره رداً وجدلا ومناقشة لذلك ويرد عليه. يقول في المسألة الثالثة عند تفسيره لقوله تعالي (ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم)، "اعلم أنه سبحانه أمر بعبادته والأمر بعبادته موقوف علي معرفة وجوده، ولما لم يكن العلم بوجوده ضروريا بل استدلاليا لا جرم أورد هنا ما يدل علي وجوده، واعلم أننا بينا في الكتب العقلية أن الطريق إلي إثباته سبحانه وتعالي إما الإمكان، وإما الحدوث، وإما مجموعها، وكل ذلك إما في الجوهر أو في الأعراض فيكون مجموعهما الطرق الدالة علي وجوده سبحانه وتعالي ستة لا مزيد عليها، أحدهما:

الاستدلال بأمكان الذوات، وإليه الإشارة بقوله تعالي : (والله الغنى وأنتم الفقراء) [١] ، وبقوله تعالي حكاية عن ابراهيم (فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) [٢] ... وثانيها : بالاستدلال بأمكان الصفات وإليه الإشارة بقوله تعالي (خلق السماوات والأض) [٣]، وبقوله تعالي (الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء[٤] علي ما سيأتي تقريره، وثالثها : الاستدلال بحدوث الأجسام. وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام [كما حكي القرآن الكريم] (لا أحب الآفلين)[٥]

ورابعها: الاستدلال بحدوث الأعراض، وهذه الطريقة أقرب الطرق إلي إفهام الخلق، وذلك محصور في أمرين: "دلائل الأنفس، دلائل الآفاق. والكتب الإلهية في الأكثر مشتملة علي هذين البابين. والله تعالي جمع هنا بين هذين الوجهين" [٦]

ويتضح في هذا النص مدي استقصاء الرازي لجميع الوجوه المحتملة للاستدلال علي وجود الله وعلي قدرته بدءاً بالذات ثم الصفات، وهنا إشارة لطيفة، فقد جعل خلق السماوات والأرض من بين الدلائل علي إثبات الصفات، والترتيب في جعل حدوث الأجسام بعده باعتباره ناتج الصفات، وبعده تأتي الاعراض باعتبارها مظاهر حركة الأجسام أو ناتج حركاتها ثم حصر الدلائل كلها في أمرين: دلائل الأنفس، ودلائل الآفاق، وهذا يشير إلي العقلية المنطقية والفلسفية التي تحكم فكر الرازي، فاذا أضفنا إلي ذلك أمانته في عرض الآراء المختلفة بما في ذلك من يخالفونه في الرأي وجدنا

---

(١) محمد/٣٨ (٢) الشعرا/٧٧ (٣)الزمر/٥ (٤) البقرة/٢٢(٥) الأنعام/٧٦

(٦) مفاتيح الغيب مج ١ح٢/٤٨٦ ،

منهجا متماسكاً ومحكما مما جعل الرجل علي ثقة كبيرة في نفسه حتي وإن خالف المشهور وقد أشار إلي ذلك في مقدمة كتابه المباحث المشرقية بقوله "نفصل المطالب بعضها عن بعض ثم نردفها إما بالإحكام وإما بالنقض، ثم نزيلها بالشكوك المشكلة والاعتراضات المعضلة، ثم نتبعها إن قدرنا بالحل الشافي والجواب الوافي.. وربما وقع في أثناء ذلك ما يخالف المشهور "[1] ونعتقد أن ما يقصده الرازي من دلائل الأنفس هو ما أشار إليه القرآن في قوله تعالي (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)[2] أي أن الإنسان يجب أن ينظر إلي نفسه وسيجد آيات الله الدالة علي وجوده وقدرته، كما ان الله تعالي جمع الأنفس والآفاق في آية واحدة في قوله تعالي: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق)[3] وذلك يشير إلي أن هناك علاقة بين الأنفس والآفاق، وربما كان هذا هو السبب في حصر الرازي للدلائل في هذين الأمرين ولهذا فإنه يستدل بهذه الآية كثيراً، ويشرح ذلك فيقول: أما دلائل الأنفس، فهي أن كل أحد ... م بالضرورة أنه ما كان موجوداً قبل ذلك وأنه صار الآن موجوداً وان كل ما وجد بعد العدم فلابد له من موجد وذلك الموجد ليس هو نفسه ولا الأبوان،ولا سائر الناس، لأن عجز الخلق عن مثل هذا التركيب معلوم بالضرورة فلابد من موجد يخالف هذه الموجودات حتي يصح منه إيجاد هذه الأشخاص، إلا أن لقائل ههنا: لم لا يجوز أن يكون المؤثر طبائع الفصول والأفلاك والنجوم؟ ولما كان هذا السؤال محتملا ذكر الله تعالي عقيبه ما يدل علي افتقار هذه الأشياء إلي المحدث

---

(١) الرازي/ المباحث المشرقية ط طهران ١٩٦٦ جـ٢ (المقدمة) وراجع عبد العزيز المجدوب الرازي من خلال تفسيره ط الدار العربية للكتاب ليبيا / تونس ١٩٨٠/٨٤-٨٥

(٢) الزاريات/٢١ (٣) فصلت /٥٣

والموجد وهو قوله تعالي: (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء) وهو المراد من دلائل الآفاق، ويندرج فيها كل ما يوجد من تغييرات أحوال العالم من الرعد والبرق والرياح والسحاب وإختلاف الفصول، وحاصلها يرجع إلي أن الأجسام الفلكية والأجسام العنصرية مشتركة في الجسمية. فاختصاص بعضها ببعض الصفات من المقادير والأشكال والأحياز لايمكن أن يكون للجسمية ولا لشئ من لوازمها، وإلا وجب إشتراك الكل في تلك الصفات فلابد وأن يكون لأمر منفصل... فثبت بهذه الدلالة افتقار جميع الأقسام إلي مؤثر قادر ليس بجسم ولا بجسماني، وعند هذا ظهر أن الاستدلال بحدوث الأعراض علي وجود الصانع لا يكفي إلا بعد الاستعانة بأمكان الأعراض والصفات"[1] وهكذا يربط الرازي بين الاثنين من خلال تأثير الفصول والأفلاك والنجوم في الطبائع حسب ما وصل إليه العلم في عصره، هذا بالإضافة إلي اشتراك الاثنين في صفة الجسمانية، وهذا إلي حد ما صحيح بالرغم من اختلاف طبيعتي الجسمين إلا أنهما بالقياس إلي الله يعدان أمراً واحداً من حيث جسما نيتيهما، ولا جسمانية الخالق، وبحكم ما وصل إليه علم النجوم والتنجيم في عصره، فإن هناك علاقة وثيقة بين النوعين، حيث كان مشهوراً قراءة طالع الأشخاص من خلال قراءة حركة النجوم ومطالعها، والذي لا يزال جزء منه مستخدما حتي الآن.

وعندما وصل الرازي إلي قوله تعالي (جعل الأرض فراشاً) يستعرض ما وصل إليه علمه عن الأرض، ويشرح معني كونها فراشاً، ويبين أن هذا مشروط بكونها ساكنة وأنها ليست بكرة، ولهذا فهي متوسط الفلك، وهو

---

(١) مفاتيح العيب مج١ح٢/٤٨٧

في كل هذا يستند إلي أقوال أرسطو" (١) ثم يستطرد في ذكر منافعها بما فيها من معاون وما تخرجه من نبات ودواب، وأنها سبب في كثير من معايش الناس ومصالحهم وكيف مكنهم الله من الانتفاع بكل هذه المنافع، ويربط بين كل ذلك وبين وجود الصانع" وإذا تأمل العاقل في هذه اللطائف والعجائب اضطر في افتقار هذه التدابير إلي صانع حكيم مقتدر عليم سبحانه وتعالي عما يقول الظالمون علواً كبيراً (٢) فإذا انتقل إلي الحديث عن (السماء بناء) يرد علي من يري أن السماء أفضل من الأرض ويبين أن فضلها متساو وأن تكرار ذكر الله لهما "يدل علي عظم شأنهما، وعلي أن له سبحانه وتعالي فيهما أسراراً عظيمة، وحكماً بالغة لا تصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم" (٣) ثم يأخذ في بيان فضائل السماء ، وبيان فضائل ما فيها من الشمس والقمر والنجوم، ويبين ضرورة كل منها لانتظام الملك بكل ظواهره.

وعند تفسيره لقوله تعالي (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوي إلي السماء، فسواهن سبع سماوات وهو بكل شئ عليم (٤) يرد من ادعوا بأن هناك تناقضا بين هذا الترتيب الذي تكرر في الآيتين، وبين قوله تعالي : (ءأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها)(٥) يرد عليهم بذكر ما قاله العلماء ثم يعقبه برأيه يقول " وذكر العلماء في الجواب عنه وجوها : أحدها :

---

(١) انظر مفاتيح الغيب مج ١ج٢/٤٩ (٢) نفسه/٤٩٧ (٣)نفسه/٤٩٨

(٤) البقرة/٢٩ (٥) النازعات/٢٧-٣٠

يجوز أن يكون خلق الأرض قبل خلق السماء، إلا أنه ما دحاها حتى خلق السماء لأن التدحية هي البسط، ولقائل أن يقول :هذا أمر مشكل من وجهين الأول: أن الأرض جسم عظيم فامتنع انفكاك خلقها عن التدحية، وإن كانت التدحية متأخرة عن خلق السماء كان خلقها أيضا لا محالة متأخراً عن خلق السماء، والثاني: أن قوله تعالى : (خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوي إلي السماء) يدل علي أن خلق الأرض وخلق كل ما فيها متقدم علي خلق السماء لكن خلق الأشياء في الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوة فهذه الآية تقدم كونها مدحوة قبل خلق السماء وحينئذ يتحقق التناقض. والجواب: أن قوله تعالي: (والأرض بعد ذلك دحاها) يقتضى تقديم خلق السماء على الأرض ولا يقتضى أن تكون تسوية السماء مقدمة على خلق الأرض، وعلى هذا التقدير يزول التناقض "[1]

عندما ينتقل الرازي إلى الحديث عن السماء وما فيها يقول في المسألة الخامسة "اعلم أن القرآن ههنا قد دل على وجود سبع سموات، وقال أصحاب الهيئة أقربها إلينا كرة القمر، وفوقها كرة عطارد، ثم كرة الزهرة، ثم كرة الشمس ثم كرة المريخ ثم كرة المشترى ثم كرة زحل" [2] ويأخذ في سرد أدلتهم على ذلك الترتيب وأولها الستر (أي أن الساتر عن المستور بكونه الغالب) يعنى أن الأقرب إلينا يستر الأبعد، ثم اختلاف المنظر" فانه محسوس للقمر وعطارد والزهرة وغير محسوس للمريخ والمشترى وزحل، وأما فى حق الشمس فانه قليل جداً فوجب أن تكون الشمس متوسطة بين القسمين.[3]

---

(١) راجع مج٢ج٤/ ٥٩١-٦٠٣

(٢)مفاتيح الغيب مج١ج٢/٥٦٨

(٣) نفسه والصفحة نفسها

ويحاول الرازى أن يرد على هذه المسائل ويرى أنها ضعيفة ويستند إلى رأى أبى الريحان فى تلخيصه لفصول الفرغانى الذى يقول : "إن اختلاف المنظر لا يحس إلا فى القمر فبطلت هذه الوجوه ويبقى موضع الشمس مشكوكاً فيه [1] كما يستدل فى حديثه بآراء أصحاب الأرصاد وأرباب الهيئة ويستخدم الحسابات فى تدعيم رأيه عن الحركة والثبات، ولعل هذه المعرفة الواسعة التى طرحها هى التى جعلت عبد العزيز المجدوب يطلق عليه "الرازى العالم الفلكى" [2] مستعرضا نماذج من هذه المعرفة.

ولا يقف الرازى فى تفسيره عند هذه المسائل الفلكية المتصلة بالسماء وأحوالها بل يتناول مسائل خاصة بجيولوجية الأرض وطبيعتها وطبقاتها وخاصة عند تفسيره للآية الكريمة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . .)[3] كما يتحدث عن جبالها وسهولها وموقعها من حركة الفلك وسبب العمارة فيها، وأقسامها بين بر وبحر وسهل وصخر ورمل وكل ما تشتمله من مظاهر[4]

فاذا انتقلنا إلى الحديث عن الإنسان وتكويناته نجد أنه يتناوله فى مواضع كثيرة من تفسيره بدءا من تفسيره لقوله تعالى فى سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) يقول مثلا: " ولما وقعت قطرة النطفة من صلب

(١) نفسه والصفحة نفسه (٢) المجدوب مرجع سابق/١٣٣
(٣) البقرة/١٦٤ (٤) راجع مج٢ جـ٤ / ٥٩٦-٦٠٢

الرجل إلى رحم الأم، فانظر كيف أنها صارت علقة أولا، ثم مضغة ثانيا، ثم تولدت فيها أعضاء مختلفة مثل العظام والغضاريف، والرياضات

والأوتار والأوردة والشرايين، ثم اتصل البعض بالبعض، ثم حصل في كل واحد منها نوع خاص من أنواع القوى فحصلت القوة الباصرة في العين، والسامعة فى الأذن، والناطقة في اللسان، فسبحان من أسمع بعظم، وبصر بشحم، وأنطق بلحم[1] إلي غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي تردفى تفسيره لآيات كثيرة تشير إلى خلق الإنسان.

ويبدو أن الرازى لم يكن يريد أن يترك أية مسألة حتى ولو كانت صغيرة ما دامت تتداول بين العلماء، ومن هنا جاءت الاستطرادات الكثيرة فى تفسيره ولكنه لم يخرج عن حدود النصوص، وفى هذه المسألة لنا بعض الملاحظات:

أولاً: ليس بالضرورة أن يستقصى الرازى كل تفاصيل المسألة الكونية حينما يتطرق إلى تفسير آية تتضمنها، بل قد تشغله جزئيات فى الآية عن ذكر هذه التفاصيل، فيستوفيها فى تفسير آية أخرى تضمن مثل هذه الإشارة وذلك مثلما حدث عند تفسيره للآيات ٢١، ٢٢، ٢٩، ١٦٤ من سورة البقرة ورقم ١٩٠، ١٩١ من سورة آل عمران.

ثانيا: ينطلق الرازى فى حديثه عن هذه الإشارات الكونية مما وصل إليه عصره من مستوى علمى أو معلومات علمية، والحق أنه لا يتكلم من فراغ

---

(١) مفاتيح الغيب مج١ج٢٧/١

فحديثه فيها يدل على سعة اطلاعه إذ نرى إفادته مما قاله أرسطو وبطليموس، وأهل الهند والصين وبابل وغيرهم بالإضافة إلى علماء الفلك الإسلاميين. واضح أن علم الفلك كان يحظى باعتمام القدماء ، ربما لأنه كان ظاهراً أمامهم ويمكن رصد حركاته، ومن ثم ربطوا بينه (أى الفلك) وبين كثير من قضاياهم، وظهر نتيجة لذلك علم السحر والتنجيم وعلم الطلسمات، ونتيجة لذلك أيضا كثر حديث الرازي عن هذه المسائل بالمقارنة إلى حديثه عن الأرض وما فيها إذ كانت تعد خافية عليهم وهذا لا يعني عدم الحديث عن طبقات الأرض وما فيها بل خاض فى الحديث عنها وعن مكنوناتها فى حدود ما وصل إليه علمهم .

ثالثاً: قصدت الإشارة إلي هذا حتي لايأتي قارئ اليوم ويحاول محاسبة الآراء العلمية التي خاض فيها الرازي بالقياس إلي ما وصل إليه العلم في عصرنا الحاضر لأن المقارنة هنا ستكون ظالمة وهاضمة لحقه ؛ إذ إننا لا يمكن أن نقارن بين بداية هذا القرن الذي نعيشه وبين نهايته من حيث الإنجازات العلمية التي تتوالي بتوالي التقدم في العلوم فكلما تقدم العلم اكتشف خطأ فروضه الأولي أو علي الأقل طورها وإذا كان هذا حال السنين القليلة المتتابعة فما بال السنين الطوال الماضية ؛ وعلماؤها كانوا يعتمدون علي الحدس والتخمين ثم الفروض النظرية الفلسفية ومقدماتها ونتائجها وليس في أيديهم أجهزة رصد ومتابعة وتحليل مثل التي يمتلكها علماء العصر الحاضر.

رابعاً: إن الرازي لم يكن يميل إلي التكرار حتي في الآيات المتشابهة ؛ بل يحاول أن ياتي بجديد فيها بدليل أنه لما ذكر مسألة خلق الإنسان في تفسيره لآية (الحمد لله رب العالمين) لم يكرر حديثه عند الآيات التي تفصل

القول في هذه المسألة وهي الآيات (١٢ ؛ ١٣ ؛ ١٤ ؛ ١٥ ؛ ١٦) من سورة المؤمنون بل تطرق إلي نقاط أخري في فلسفة الخلق وترتيبه وكما هو الحال أيضاً في حديثه عن الأرض فقد ذكر بعض المعلومات عن الأرض عند تفسيره لقوله تعالي (الذي جعل لكم الأرض فراشاً) ولما عاد إلي المسألة نفسها في تفسير قوله تعالي(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) وفي نفس السورة ذكر أشياء أخري تتعلق بعلاقة الأرض بحركة الفلك وحينما وصل إلي السبب الثالث لاختلاف أحوال الأرض قال:: اكون بعضها بريا وبحريًا وسهليا وجبليا وصخريا ورمليا وفي غور وعلى نجد، ويتركب بعض هذه الأقسام ببعض فتختلف أحوالها اختلافاً شديداً، وما يتعلق بهذا النوع استقصيناه فى تفسير قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء)[1] وانتقل بعد ذلك الي معلومات أخري لم يذكرها قبل ذلك أو ذكرها في اختصار وأخذ يفصلها في الموضع الثاني مما يؤكد ما ذهبتا إليه.

خامساً :إن الرازي يؤكد في كل مرة المنطق الذي ألزم نفسه به وهو الاستدلال بهذه الأمور كلها علي وجود الصانع وقدرته ومن ثم ضرورة الإيمان به وهو المنطق المستمد من القرآن نفسه (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء)، ونهاية الآية (إن فى خلق السموات والأرض) إلى قوله (الآيات لقوم يعقلون) وفى آل عمران (إن فى خلق السموات والأرض

---

(١)مفاتيح الغيب مج١ج/٥٩٩

واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب)[١] أي أنه لم يخرج عن الإطار القرآني بل سار في ركبه مما جعله يلقى استحسانا وتأييدا الدى بعض الباحثين المحدثين مثل الدكتور عبد المنعم النمر الذى عبر عنه بقوله : "ولذلك استغل الرازي ما عرفه من علوم ليجلى بها أسرار القرآن، ومعجزاته العلمية فى الكون بالإضافة إلى معجزته البلاغية مما أشار إليه القرآن أو تكلم بصراحة عن آيات الله فى كونه، ولا يجلى هذه الآيات ويبرزها ويصل إلى أغوارها إلا العلم، فإذا قال الله (رب العالمين)، فما هى هذه العوالم التى خلقها الله وهو ربها ؟ لا تستطيع البلاغة أن تبرز لنا هذا وتبينه بل العلم هو الذي يقدم لنا هذه العوالم أجلي بيان علي قدر اتساعه وهو كل يوم يزداد اتساعا"[٢].

سادساً: إن كل هذا يجري في إطار أسلوب فلسفي يقوم علي طـــــرح المعطيات (المقدمات) لاستنتاج نتائج محددة تخدم هذا الهدف الذي سعي إليه والذي اختلف عن أهداف سابقيه وهنا يكمن السبب في تسمية كتابه (مفاتيح الغيب).

وأخيرا فإننا لم نقف عند كل ما أورده الرازي من تفسيرات علمية لأننا لم نركز منذ البداية علي الكم بل كان جل هم البحث أن يركز علي الكيف الذي من خلاله يبرز الدورالذي قام به الرازي علي صعيد تطـــــــــــور

---

(١) آل عمران/ ١٩٠ (٢) عبد المنعم النمر، علم التفسير ط دار الكتاب الإسلامى القاهره ١٩٨٥/ ١٢٥ وراجع أيضاً محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله ط دار الكتب الشرقيه ١٩٧٩/ ٧٢، ٧٤

هذا الاتجاه في بيان الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وذلك أن التركيز علي الكم شأنه أن يشغلنا عن هذا الهدف كما أنه يستغرق حيزاً أكبر من الصفحات تطلب جهداً ووقتا ومالا لم نبخل بها على الرجل لكننا نعدها من قبيل التكرار لأن صفحات الكتاب مليئة بهذا الاجتهاد العلمي الذى ينبئ عن سعة إطلاع كبيرة تمتع بها الرازى، كما أن الكتاب أصبح متداولا بين يدى القراء، ولو بقى الكتاب في صورته القديمة العزيزة المنال والصعبة فى قراءتها لكان حقا علينا أن نفسح لها المجال هنا لنبرزها للقارئ.

-٨-

أما بعد الرازى - خاصة فى القرون الوسطى الإسلامية - فقد انقسم المفسرون إلى معارض لهذه النزعة فى تفسير القرآن وإلى مؤيد لها فبينما وقف أبو إسحاق الشاطبى الأندلسى وهو من علماء القرن الثامن الهجرى (ت.٧٩هـ) موقف الإنكار لهذا اللون من التفسير وحللها فى كتابه القيم (الموافقات) وهو كتاب ألفه فى أصول الفقه وحققه الشيخ عبد الله دراز فى بداية القرن الحالي وقد عقد بحثاً خاصا فى الجزء الثانى من الكتاب لبيان مقاصد الشارع، وانتهز هذه الفرصة ليتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين (ونظن أنه يقصد بهذا الكلام الغزالى ومن نحا منحاه) مستنداً إلى أن القرآن نزل إلى العرب وهم أميون فلم يشر إلى ما لا يعلمونه ولم يخرج عما ألفوه وعرفوه من العلوم يقول : "وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشئ مما زعموا، نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب أو ما يبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو

الألباب، ولا تبلغه إدراكات "العقول الراجحة، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره أما أن فيه ماليس من ذلك فلا "[1] .

وبالرغم من تأييد الذهبى لهذا الموقف وجعله اختياره فى المسألة إلا أنه مخالف للحقيقة من جهتين : أولاً : ان القرآن لم ينزل للعرب خاصة، ولو صح هذا ما كان مؤثراً في الأمم الأخرى، ولما آمن به أحد من غير العرب، وهذا يناقض وحقيقة القرآن الذى جاء للناس عامة، ومن ثم فإنه يخاطب كل الفئات والأمم كما نص القرآن نفسه علي هذه الحقيقة باشاراته المتكررة في حديث الله لمحمد صلي الله عليه وسلم أنه نزل للناس جميعا وهي أكثر من أن تحصي.

ثانياً : إن القرآن لم ينزل لزمن معين حتي يرتبط به وبما عرف من علومه، بل إنه جاء هداية للناس في كل الأزمنة والأمكنة علي السواء . ولهذا فانه بالضرورة يشتمل علي معجزات وإشارات يتضح منها في كل عصر ما يتضح علي قدر تطور معرفة الناس ؛ ومن ثم فانه خارج محدودية الزمان والمكان .

ولم يثن موقف الشاطبي بعض المعاصرين له أو المتآخرين عنه بقليل مثل أبي الفضل المرسي من تأييد كلام الغزالي والرازي حتي إنه أخذ نفس جملة الغزالي (جمع القرآن علوم الأولين والآخرين) وحاول أن يفصل هذا القول مستنداً إلي كثير من آيات القرآن الكريم ومستنبطاً منها الدليل علي احتواء القرآن لكل علوم الدنيا دينية كانت ام لغوية أم طبيعية حتي الصبغة"[2]. وكذلك جلال الدين السيوطي في كتابيه (الاتقان في علوم

---

(١) الشاطبى/ الموافقات جـ٢/ص٧٦-٨٠ نقلاً عن التفسير والمفسرون ج٢/٤٦٧

(٢) نقلا عن السيوطي / الاتقان في علوم القرآن ج٢/ص ١٣٦-١٣٨

القرآن) ؛(الإكليل في استنباط التنزيل) الذي أيّد الفكرة في كتابه الاول ؛ وحاول في الثاني أن يفصلها مستنداً إلي قوله تعالي (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[1] وإلي قوله تعالي : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء،[2] ومستدلا بهاتين الآيتين علي صدق مقولة السابقين بأن القرآن حوي علوم الأولين والآخرين ؛ كما استند السيوطي في موقفه هذا إلي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله لو أغفل شيآ لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة) وهو حديث يستشف منه أن القرآن لم يغفل عن شيء من هذا ؛ واستند إلي أقوال منسوبة لابن مسعود في هذا الشأن ولكن الذهبي يقف في صف الشاطبي ويؤيد رأيه مقتنعآ بأدلته ومدعم إياها من ثلاثة وجوه : الأول من الناحية اللغوية وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معني واحد من لدن استعمالها الي اليوم بل تدرجت حياة الالفاظ وتدرجت دلالتها ؛ فكان لكثير من الالفاظ دلالات مختلفة ونحن وإن كنا لا نعرف شيآ عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة نستطيع أن نقطع بأن بعض المعاني للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون ؛ ثم يتساءل (فهل لنا بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن وجعلها تدل علي معاني حدثت باصطلاح حادث ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم ؟[3] والرد علي هذا الوجه يأتي من داخله ؛ وقد بدأ الذهبي بمقولة صحيحة ومؤيدة تماماً لإعجاز القرآن واستمراريته وبيان عظمته إذ لو وقف فهمه عند لفظ محدد بدلالة محددة لما استمر حتي اليوم هادياً ؛ وإذا كان فهم العرب للقرآن حجة عند الذهبي في موقفه ؛ فلماذا

---

(١) الانعام/٣٨ (٢) النحل /٩٨ (٣) الذهبي : التفسير والمفسرون ج٢/٩٦٤

تحدي البلغاء العرب المعارضين للقرآن أن يأتوا بمثله واظنهم علي نفس المستوي من البلاغة والفهم لمن آمن بالقرآن ؛ أليس هذا التحدي دليلا علي أن هذا النص العظيم الذي تصوروه سحراً أو شعراً يتضمن أسراراً تعجز أفهامهم عن الوصول إليها ؛ حتي وإن كانت هذه الأسرار لغوية فقط أي تقوم علي تطور دلالات الألفاظ؛ وغريب أن يتهم الذهبي المجتهدين الذين يؤمنون بهذه الفكرة بالسفه وإنكار العقل لأن هؤلاء المتهمين هم في الحقيقة مخلصون للقرآن وعاملون علي إبراز سر إعجازه الدائم والخالد .

والوجه الثاني : الناحية البلاغية وهي عند الذهبي تدعم الناحية اللغوية فمادامت البلاغة تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهذا كان حال النبي صلي الله عليه وسلم والعرب من حوله ؛ ويصبح من وجهة نظره تناقضاً ونفيا لبلاغة القرآن أن ينزل بأشياء لا يفهمها من نزل عليهم القرآن ، والحق أنها وجهة نظر قاصرة ؛لأنها تقوم علي أساس غير صحيح ؛ فمن الذي حكم بأن العرب لم يفهموا هذه الإشاره ؟ هل توقفهم عن تفسيرها يدل علي عدم فهمها ؟ بالقطع ليس عندنا دليل ؛ والمرويات التي رويت عنهم لا تقف وحدها دليلا علي ذلك ؟ لأننا ليس لدينا تفسير كامل وموثق ينسب إليهم؛ ولم يطرحوا فيه هذه الرؤية حتي نستطيع الحكم عليهم بالفهم أو عدم الفهم، كل ما هناك بعض المأثورات في تفسير بعض الألفاظ ؛ وربما كان سكوتهم هذا دليلا علي فهمهم فلم يسألوا إلا عما غمض عليهم، والدليل علي ذلك قوة اعتقادهم ؛ فلو لم يفهموا هذه الإشارات وفي إطارها الاستدلالى الصحيح علي قدرة الله لما كانت هذه العقيدة الراسخة التي لم تتزحزح أمام الأهوال التي تعرضوا لها لإثنائهم عن الاعتقاد بالله .

والوجه الثالث : الناحية الاعتقادية ويبدؤها بمقولة صحيحة (القرآن

الكريم باق ما تعاقبت الملوان ؛ونظامه نافع لكل عصر وزمان فهو يتحدث إلي عقول الناس جميعاً من لدن نزوله إلي أن يرث الله الأرض ومن عليهاوهو يساير حياتهم في كل ما يمرون من مراحل الزمن) ثم يتبعها بما يناقضها فاذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شيء ؛ وجعلناه مصدراً لجوامع الطب وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة وقوانين الكيمياء وما إلى ذلك من العلوم وما تقوم عليه من نظريات لاقرار لها ولا بقاء"[1]
والحق أن الذهبي وقع تحت فهم خاطي هو أن الذين يحاولون إبراز الجانب العلمي في إعجاز القرآن لا يحملونه جوامع الطب وضوابط الفلك إلي آخر ما أشار إليه من العلوم، وإنما هم يحاولون جاهدين إبراز ما في النص من إشارات علمية لا تعترض وقواعد العلم، ونظن أنه متأثر بالصيحة الحديثة التي كثر فيها الكلام بشكل يسيء إلي القرآن ؛ إذ أصبحت المسألة فهلوة أو مباراة في إبراز توافق القرآن مع العلم وهو منطق خاطيء في حد ذاته ؛ وأما ما حدث عند الغزالي والرازي وأمثالهم ؛ فقد انطلقوا[1] من النص يبرزون هذه الإشارات في موضعها الصحيح من وجوه الاستدلال علي قدرة الله لإيجاد الدعم العقلي للاعتقاد بجانب النص النقلي .

كما أن الإشارات التي تضمنها القرآن ثابتة وبالرغم من تطور النظريات العلمية فانها لم تتعارض معها لأنها لم تخض في الجزئيات والتفصيلات بل تحدثت عن قضايا عامة ومحاولات المفسرين تفصيلها ربما هو الذي أوحي للبعض بالتناقض لأن المفسر حين يذكر هذه التفصيلات

---

(١) الذهبي / التفسير والمفسرون ج٢/ ٤٧٠

إنما يذكرها بما وصل الله عصره وبالطبع فإن العصر الذي يليه يحمل تغيراً وتطورا قد يتعارض تماما مع ما وصل إليه سابقوه ومن هنا يبرز التناقض ؛ وأظن أنه في الوقت نفسه تبرز عظمة القرآن الكريم وعطائه لكل عصر .

مرحلة التطور

الشيخ الطبيب محمد بن احمد الاسكندراني

وتطور الظاهرة

تقديم :

بالرغم من أن الاتصال بين العرب وأوربا في العصر الحديث كان بسبب رغبة الأخيرة بكل دولها العظمي في ذلك الوقت في فرض سيطرتها الاستعمارية علي المنطقة التي تعد منطقة التقاء بين الشرق والغرب إلا أنه كانت له جوانبه الايجابية ، إذ أحدث نوعاً من الإفاقة للعقل العربي من سباته العميق وأثار فيه كوامنه العقلية التي اختفت وراء القهر الذي كان يعيشه تحت السيطرة العثمانية .

وقد حدث الاتصال في اتجاهين مختلفين ظاهراً ولكنها في النهاية يلتقيان علي هدف واحد ، أما الاتجاه الأول فكان في صورة ثقافية علي شكل إرساليات تبشيرية متجهة إلي الشام للتمهيد لما حدث بعد ذلك من سيطرة عسكرية ، أما الاتجاه الثاني فكان في صورة عسكرية مباشرة تمثل في الحملة الفرنسية علي مصر التي حاولت الاتجاه إلي الشام ولكنها فشلت ، وبالرغم من صورتها العسكرية المباشرة إلا أنها حملت معها مظاهر ثقافية وحضارية كالمطبعة والصحافة والفن المسرحي .

وأيا ما كانت الصورة التي تم بها هذا الاتصال إلا أنه في النهاية حمل معه بعض ملامح الحضارة الغربية فأفاق العقل العربي من غفوته ، وأيا ما كان رأي المجتهدين من أن هذا الاحتكاك هو الباعث لهذه اليقظة ، أو الرأي المخالف له الذي يري أن العقلية العربية ظلت محتفظة بنشاطها وخاصة في بعض المراكز العلمية الإسلامية التي لم تتأثر بهذه السيطرة العثمانية مثل الأزهر أو جامع الزيتونة .. إلخ فان المحصلة النهائية كانت صحوة لها ما بعدها من الآثار العقلية والعلمية المثمرة ، والتي بدأت أثارها تعم في كل اتجاه فكري ، وبالتالي علي شكل الحياة الاجتماعية في هذه المنطقة .

ونتيجة لهذا الاتصال بدأت حركة إحياء للتراث الإسلامي والعربي ، وتجديد له ، ولما كان التفسير أحد أهم العناصر المكونة لهذا التراث فكان لابد أن يناله أيضا نصيب من هذا الاهتمام العام الذي أصاب كل العلوم والفنون ، ولأن الطابع الغالب علي الحضارة الحديثة علمي وتكنولوجي بالدرجة الأولي ، فقد بدأت الأصوات المنبهرة بهذه الحضارة تثير التساؤلات حول موقف الدين من هذه المستحدثات العلمية ، وهل يتفق معها أو يختلف؟ وإذا كان يتفق معها فما الدليل ؟ وبالطبع لم يكن التساؤل شاملا كل الأديان ، فأهل الحضارة الغربية يدينون بالمسيحية ولو في صورة ظاهرية، ومن ثم كان السؤال موجها إلي الدين الإسلامي بصفة خاصة . ولأن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي لهذا الدين ، فكان المقصود بكل هذه الأسئلة .

وهب أناس كثيرون يبحثون ويناقشون للإجابة علي هذه التساؤلات حتي لا تسنح الفرصة لمثيريها أن ينالوا من القرآن ، وكان لابد أن يثمر ذلك عن نظرة أكبر لهذا الجانب القرآني المشتمل علي أدلة علمية ومظاهر كونية وطبيعية لبيان تلاؤم القرآن مع كل عصر ، وظهرت معها ثنائية الدين والعلم التي حلت محل الثنائية القديمة الدين والفلسفة ، والتي بدأت بسيطة لكنها سرعان ما تطورت وظلت تتطور بتطور العلم ونظرياته .

(١)

من هؤلاء الذين أشرنا إليهم آنفا طبيب مصري من الإسكندرية انتقل إلي دمشق ليعمل بها طبيبا بالجيش سخّر نفسه لهذه المهمة ولبيان اشتمال القرآن علي سائر العلوم ، هذا الطبيب هو محمد بن أحمد الإسكندراني المتوفي سنة ١٣٠٦هـ/١٩٨٨م يقول عنه الزركلي في الأعلام " طبيب باحث

من أهل الإسكندرية عمل في العسكرية البحرية بمصر ١٢٥٦هـ، ورحل إلي دمشق فتولي رئاسة أطباء الجيش إلي ١٢٥٨هـ وتوفي بدمشق " (١) وهي ترجمة مختصرة تبين أن الرجل كان طبيبا في الجيش ، وانتقل للعمل في الجيش أيضا بدمشق ، ولكنه يبدو أنه أعجب بها فعاش فيها بقية عمره حتي صار ينسب إليها ، وتوفي ودفن هناك كما يقول محمد جميل الشطي الذي ترجم لأعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر الهجريين يقول في الجزء الخاص بأعيان القرن الرابع عشر :" ترجمة الفاضل تقي الدين في تاريخه فقال ما خلاصته : هو محمد بن أحمد الإسكندراني ثم الدمشقي ، أحد علماء الطب في دمشق ، ألف مؤلفات تدل علي فضله ومهارته في فنه منها كتاب (كشف الأسرار الربانية "القرآنية"(٢) في ثلاث مجلدات قرّظه له علماء دمشق ١٢٩٧ هـ ، ومنهم مفتي دمشق محمود أفندي الحمزاوي ، والقاضي مصطفي فائق أفندي ، والشيخ سليم العطار ، وسعيد أفندي الأسطواني ، والشيخ علاء الدين عابد ، والشيخ بكري العطار ، والشيخ أحمد الشطي ، والشيخ عمر العطار ، ومحمد أفندي المنيني ، وكلهم أثنوا علي كتابه وقالوا إنه لم يسبقه أحد لمثله ، ومنها كشف الأسرار الربانية في خواص المعادن والنباتات الأرضية ، وقد راج هذا عند علماء الغرب وقدروه ، وكان المترجم حكيما في كل شيئ ، قنوعاً فيما يأخذه من المرضي ، يطبب الفقراء ، ويعطيهم العلاج مجاناً ، توفي عقيما سنة ست وثلاثمائة وألف ، ودفن في الجهة القبلية من مقبرة الدحداح وكان

---

(١) الزركلي / الأعلام ط٢ مصر ١٩٥٥/ح٦/٢٤٦

(٢) يبدو أن الشطي في ترجمته للرجل خلط بين عنوان هذا الكتاب وعنوان كتاب آخر له " كشف الأسرار الربانية بالنباتات والمعادن والخواص الحيوانية " والصحيح أنه كشف الأسرار النورانية كما جاء في الاعلام للزركلي ومعجم المطبوعات العربية ، يوسف سركيس وهو الصحيح كما رأينا في النسخة التي بين أيدينا للكتاب .

كثيرا ما يتمثل بقول الشاعر:

إن المعلم والطبيب كلاهما   لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه   واقنع بجهلك إن جفوت معلماً

قلت وكان المترجم طبيبا للحكومة في مستشفي الغرباء ودائرة بلدته مدة طويلة ، وكان حسن السيرة يجتمع عنده بعض العلماء والوجهاء فيتذاكرون معه ويستأنسون لحديثه رحمه الله تعالي :" (١)

وقد حرصت علي نقل هذه الترجمة كاملة لعلها تعطي بعض المعرفة عن الرجل أو العالم الذي لم يلتفت إليه أحد من باحثينا اللهم بعض أسطر قليلة عن كتابه " كشف الأسرار النورانية القرآنية "وعن اسمه وأنه من علماء القرن الثالث عشر الهجري ، وردت في كتاب "التفسيروالمفسرون "للذهبي(٢) ، أما ماعدا ذلك فلم يلتفت إليه أحد آخر لامن الذين تعرضوا لقضية التفسير ولا من غيرهم ، ومن ثم تصبح ضرورة أن تقدم ترجمته للقارئ حتي يعرفه.

وواضح أن الرجل كان عالماً بمعني الكلمة ، فلم تشغله وظيفته الرسمية بالرغم من أنها وظيفة عسكرية حكومية في ذلك الوقت عن المعرفة والاطلاع والتفكير والتأليف كما أنه كان معروفاً بحسن السيرة والأخلاق الفاضلة كما تدل علي ذلك كلمات الثناء التي قيلت في حقه ، هذا إلي جانب علمه الذي يشهد له أمور ثلاثة: الأول : مؤلفاته التي جمعت بين العلم وخاصة (الطب)

---

(١) محمد جميل الشطي/ تراجم أعيان دمشق ق١٤،١٣ الهجري ط دمشق دار اليقظة العربية ١٤٦٧هـ / ١٩٤٨ م صـ٣١ ج٢ من نفس المجلد.

(٢) انظر ج٢ /٤٧٦،٤٧٥

وبين القرآن الكريم . والثاني اجتماع العلماء والوجهاء عنده يتذاكرون معه ، ويستأنسون لحديثه ، أي أن بيته كان أشبه بالصالون الفكري الذي عرف فيما بعد في القرن العشرين في مصر ، ولا يحدث هذا إلا ممن كان عالما أو محبًا للعلم ، ويعرف فضله العلماء الذين يلتفون حوله . أما الثالث، فهو مؤلفاته التي ذكر منها الشطي اثنين ، وذكر الزركلي وسركيس الثالث وهو : الأزهار المجنية في مداواة الهيضة الهندسية (١)

ومن الطبيعي أن يتلازم العلم والأخلاق ، فكلاهما يحصن الآخر ويدعمه، وقد صدقت هذه المقولة في الإسكندراني فأصبح حكيما كما يقول عنه المترجم ، يطبب الفقراء ، ويعطي الدواء مجاناً لهم ، وربما كان هذا عاملا آخر من عوامل شهرته هناك ، إذ لا يصدر هذا إلا من وعي بحقيقة مهنته وهي مهنة إنسانية بالدرجة الأولي ، ولا يعي هذا إلا من كان عالماً بحق ، ويبدو أن الرجل كان متصوفا في روحه وعلمه وسلوكه " حتي أنه زهد في الحياة الدنيا ، ومات عقيما" كما يقول عنه الشطي في ترجمته ، فاكتفي من دنياه بعلمه ومهنته ومحبته للفقراء ، ولم يسع إلي ما هو أكثر من ذلك.

(٢)

يذكر الزركلي في الأعلام ، وسركيس في معجم المطبوعات العربية (٢) أن الاسكندراني ألف ثلاثة كتب هي ١-كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية .٢- تبيان الأسرار الربانية بالنباتات والمعادن والخواص الحيوانية

---

(١) الأعلام ج٦/٢٤٦ ومعجم المطبوعات العربية ط سركيس بمصر ١٩٢٨م صـ٤٣٨

(٢) سبقت الإشارة إليها آنفا

٣-الأزهار المجنية في مداواة الهيضة الهندسية ، وقد طبعت الكتب الثلاثة الاول طبع بالمطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٧ هجرية ، والثاني والثالث طبعا بدمشق وكان أولها الأزهار المجنية وطبع بدمشق ١٢٩٢هجرية والثاني : بيان الأسرار الربانية وطبع ١٣٠٠هـ .

وبالرغم من طبع هذه الكتب فاننا لم نعثر علي الكتابين الأخيرين ، وربما كان سبب ذلك أنهما طبعا في دمشق منذ وقت متقدم فلم تصل منها نسخ إلي مصر ، أو ربما وصلت واندثرت بمرور الزمن ، لكن الكتاب الأول وهو أهمها وأكبرها بقي ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية . وواضح من هذه العناوين أن الكتب الثلاثة تسير في نفس الاتجاه فكلها غالبا يدور حول البحث في القرآن عن إشارات إلي هذه المواد ومن هنا فان كتاب" كشف الأسرار النورانية " يعبر عنها ، ومن الجائز أيضا أن تكون قد تضمنت إضافات ، ولكن هذا يعتمد علي التخمين ، ولا نستطيع في بحث كهذا أن نعتمد علي الظن بل الأفضل أن نعتمد علي ما في أيدينا حتي نحصل علي الكتب الأخري إذا تمكنا من ذلك .

يقع كتاب " كشف الأسرار النورانية القرآنية " في ثلاثة أجزاء ضخمة يحتوي كل جزء منها علي ما يزيد عن الخمسين مسألة بكل فروعها ، وكل جزء له عنوان : الجزء الأول يعنوان خلق الإنسان ، والثاني عن خلق السموات والأرض ، والثالث عن النباتات ، ويعني ذلك أنه أحاط بكل الإشارات الواردة في القرآن الخاصة بكل العوالم ، السماوات والأرض ، وعالم الإنسان الذي تحدث عنه كنموذج للكائنات الحية ، فأشار إلي الحيوانات ، ثم عالم النبات . ولهذا امتدحه كثير من علماء عصره ، وقد ذكر الاسكندراني هذه التقاريظ في بداية الكتاب ، وقد أجمعت كلها علي أهمية

الكتاب وقيمته وأشار بعضها إلي أحد ملامح منهجه ، والملاحظ أن معظم هـؤلاء الذين مدحوه كانوا فقهاء فقال فيه الشيخ محمود الحمزاوي مفتي دمشق " قد أحببت طرف الطرف في أطراف طرائف هذا المؤلف ذي الترتيب العجيب المفيد لكل فقيه ومفسر ومفتن وأديب وطبيب ، وانه جدير أن يسمي كشف الأسرار النورانية حيث انه أماط الحجب عن معلومات كانت مستورة مخفية وحقيق بأن يخلع عليه حبر القبول من العلماء الفحول (١) كما أيده في ذلك السيد مصطفي فائق خليفة دمشق الشام والحائز لفضاء مكه، بل وبالغ بعضهم في مدحه مثل الشيخ محمد عارف المنير الحسيني الشافعي الدمشقي وقال " إنه لا يعلم ذلك السر (٢) إلا الراسخون في العلم والتبيان وهو أن القرآن يحتوي علي كل شئ وأنه صالح لكل زمان ومكان.

وإن ذلك معلوم عند لقمان العصر ورازيه (٣) ، وأرسطو الدهر وشيرازيه(٤) الطبيب الماهر والحكيم الباهر الذي هو الأول في الرياسة وابن سينا الثاني السيد محمد بن السيد أحمد الإسكندراني ، فقد شمر عن ساقي جده واجتهاده وغاص في لجة دقائق العلوم ، وقدح زناد فكره الصائب في استخراج المجهول من المعلوم ليظهر لمثل هؤلاء الجهال طرفاً من ذلك السر بحكمته وإرشاده فجاء كتاباً يسر الخاطر ويبهر الناظر فكم فاق علي الأول والآخر" (٥)

هكذا وصل الحال بفقيه شافعي أن يعده لقمان العصر ، وأرسطو هذا

---

(١) مقدمة الكتاب
(٢)ربما يقصد سر إعجاز القران
(٣) إشارة إلي الرازي صاحب مفاتيح الغيب
(٤) إشارة إلي الشيرازي فيلسوف الصوفية وشاعرها الفارس الكبير
(٥) مقدمة كتاب كشف الأسرار النورانية القرآنية

الدهر مشيرا إلي الرازي والشيرازي بل وجعله يتفوق علي ابن سينا ، وأخيرا يذكر أنه فاق الأول والآخر ، وإذا تأملنا هذه التقاريظ وغيرها ممن لم نذكرها هنا وهي مثبتة في مقدمة الكتاب للفت نظرنا أنها من فقهاء ، ويعني هذا أنهم كانوا متفتحين لدرجة قبول هذا العمل والثناء عليه ، مع أن التفسير العلمي لاقي هجوما وعنتا بعد ذلك ، وخاصة في مصر ، وربما كان هذا هو السبب في عدم شهرة الكتاب وصرف الأنظار عنه ، فلم نعثر له علي ذكر في الكتب التي تناولت موضوع التفسير في العصر الحديث اللهم إلا إشارة الذهبي القصيرة جدا في " التفسير والمفسرون " بالرغم من أنهم أفاضوا في الحديث عن كتاب " الجواهر " الذي أثار الجدل في الأوساط الفقهية ، والدينية بعامة في مصر وغيرها من البلاد العربية .

وليس ادل علي تفتح بيئة الشام الفقهية من أن يمدحه فقيه حنبلي هو الشيخ أحمد الشطي مفتي الحنابلة بدمشق الشام بقوله :

كتاب لو تأمله ضرير لعادت مقلتاه بلا ارتياب
ولو مرت حوامله بقبر لعاد الميت حيا في التراب(١)

إلي هذا الحد يعده من أسباب عودة بصر الضرير ، وعودة الروح إلي الميت ، وبالرغم مما يمكن أن يقال من مبالغة هذا الكلام في مدح الكتاب إلا أنه تبقي دلالته علي قبول هذه الأوساط له ، مما يشجعنا للحديث عنه وإعطائه حقه من البحث فيه ، والإشارة إليه كمرحلة من أهم مراحل تطور هذا الاتجاه في التفسير .

---

(١) المصدر السابق/ المقدمة

يذكر الإسكندراني في مقدمة كتابه نقطتين مهمتين يحسن البدء بهما وهما أولا : علم التفسير ورأيه فيه وفي موضوعه وغايته ، وثانيا : السبب الذي دفعه إلي تأليف هذا الكتاب . أما بخصوص الموضوع الأول فيقول"والمعارف ممالك يستولي عليها ملاكها والعلوم بروج تدور عليها أفلاكها ، ولا سيما علم التفسير الذي به يرد التوحيد علي الإنسان وهو موضوع لمعرفة الحكمة والأديان ، وشرف العلوم بشرف موضوعاتها ووثاقة بنيانها بجدوي غاياتها فما كان موضوعه أشرف كان أعظم غاية وأرفع مكانة وأكثر عناية فموضوع علم التفسير كلام الله تعالي الذي يتوصل به إلي معرفة الأجرام السماوية والأرضية والمولدات الثلاثة والتوحيد والأحكام الشرعية ، وغايته معرفة جميع الأحكام المستنبطة من الآيات الشريفة القرآنية فمنفعته عامة لعموم الاحتياج إليه ، وفائدته مطلوبة لترتيب بقاء الأحكام عليه فلذلك كانت معرفته من أقرب الوسائل إلي الاعتراف بالخالق ذي الصفات العلية، ولا شك أن لهذه الأجرام المشار إليها والآثار مؤثرا وهو الإله الموجد للعقول والنفوس والأجسام الفلكية والعنصرية "(١)

بداية يحدد الإسكندراني رأيه في علم التفسير فهو علم يرد به التوحيد علي الإنسان ، أي أنه العلم الذي يستطيع طرح مفهوم التوحيد عن طريق بيانه لآيات الكتاب المنزلة من الله لتعريف الإنسان بالله وتحديد العلاقة بين الرب والعبد ، ولذلك كان موضوعه أشرف الموضوعات لأن موضوعه هو كلام الله ، ويستمد علم التفسير شرفه من شرف موضوعه ، ولما كان كلام اللـــه

(١) كشف الاسرار النورانية / المقدمة صـ٢

تعالي يتوصل به إلي معرفة الأجرام السماوية والأرضية والمولدات الثلاثة، والتوحيد والأحكام الشرعية ، فان قصر التفسير علي أحد هذه العلوم يخل بمكانته ، ولا يحقق هذ العلم مكانته إلا إذا اشتمل عليها جميعها ولم يقتصر علي أحدها ، وبهذا يتشكل مفهوم علم التفسير عنده وتتسع دائرته ليشمل جميع العلم المستنبطة من القرآن .

والترتيب الذي وضعه الإسكندراني للعلوم التي تمثل موضع علم التفسير لم يأت عضوائيا بل جاء منطقيا حسب وجهة نظره فهو يبدأ بالأجرام السماوية والأرضية والمولدات الثلاثة وربما قصد بها الإنسان والحيوان والنبات والتي تتولد من تفاعل الأجرام السماوية والأرضية وبالنظر فيها وتأملها ينتج التوحيد ، ويستقر مفهومه في أعماق قلوب الموحدين ، وبعد ذلك يمكن تلقي الأحكام الشرعية ، لأن فرض الأحكام الشرعية علي أناس لم تتمكن عقيدة التوحيد من قلوبهم هو نوع من العبث إذ كيف يقبلونها وهم لا يؤمنون بمن فرضها عليهم ولن يؤمنوا به إلا إذا تأملوا فيما حولهم من سماء وأرض بل وفي أنفسهم وفيما يشبههم من الكائنات الحية الحيوانية بكافة خصائصها وكذلك النباتات وكيفية تخلقها.

ولهذا رأي الاسكندراني أن غاية علم التفسير هي معرفة جميع الأحكام المستنبطة من الآيات الشريفة وبالتالي تصبح منفعته عامة لعموم الاحتياج إليه وفائدته مطلوبة لترتب بقاء الأحكام عليه ، بل تذهب غايته إلي أبعد من ذلك " فلذلك كانت معرفته من أقرب الوسائل إلي الاعتراف بالخالق" وهذا يؤكد ما سبق أن أشرت إليه من أن علم التفسير عنده تتسع دائرته باتساع غايته التي تنتهي إلي معرفة الخالق ، وهي الهدف الأساسي من القرآن الكريم بل ومن الرسالات السماوية جميعها ، ويؤكد أيضا أن الترتيب

الذي ذكره الرجل للعلوم المستنبطة كان منطقيا ومرتبا للوصول إلي الغاية الأسمي إذ إنه لابد لهذه الأجرام السماوية والآثار مؤثرا وهو الإله الموجد للعقول والنفوس والأجسام الفلكية والعنصرية ، وبعد ذلك تأتي الأحكام الشرعية .

الأمر الثاني الذي ذكره الإسكندراني في مقدمته هو سبب تأليفه لهذا الكتاب يقول: ثم أقمت بدمشق الشام معنيا بمداوة أهلها الأماثل الأعلام إلي أن اجتمعت في محل حافل سنة تسعين ومائتين وألف ببعض الأطباء المسيحيين ، فشرعوا يتحادثون في كيفية تكون الأحجار الفحمية ، وفي أنها هل أشير إليها في التوراة والإنجيل فبعد الأسئلة والأجوبة والقيل والقال وإجراء البحث والجدال حكموا وعولوا علي أنه لا يوجد لها ذكر فيهما أصلا لا صريحاً ولا إشارة تؤخذ منها وتفهم فهما ثم خصصوا لي السؤال بأنه هل أشير إليها في القرآن الشريف أم صرح بذكرها في ذلك الكتاب المنيف وإن لم يشر إليها فيه بشئ فكيف قال تعالي (ما فرطنا في الكتاب من شئ) وإن أشير إليها فيه ففي أي موضع أشير إليها ؟ وفي أي سورة نص عليها ؟ فتصدرت حينئذ للجواب وتلطفت في التفهيم والخطاب قدر طاقتي ووسعها لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وتتبعت كلام كثير من العلماء وتصفحت ألوفا من مسائل الفصحاء والبلغاء ، وتفردت في طلبه من كتب التفسير والطب القاصية ، ووقفت علي كلام كثير من العلماء بهمة عالية مع زيادة الاجتهاد والجد والحرص والتعب والكدّ، واجتنيت ولله الحمد من رياضها ثمار أشجار الأقلام واستخرجت من بحار سطورها فرائد فوائد المفسرين والأعلام وازدادت همتي من بعد وقوفي علي حقيقة تكون الحجر المشار إليه فبينت كيفية تكون الحيوانات والنباتات والأجرام السماوية

والأرضية والجواهر المعدنية مقتصرا غالبا علي القول المعتمد عليه ، وأبرزت ذلك في ثلاثة أبواب كأنها بساتين أزهار أو حدائق معارف تفجرت منها الأنهار .. فانحط الرأي علي أن من اللازم لما قصدته في بيان كيفية التكونات التي ذكرتها تأليف كتاب يشتمل علي شرح الآيات القرآنية المتعلقة بذلك شرحاً يكشف معناها وحقيقتها فاستنهضت جواد الفكر كرّا وفراً ، وغصت في ميادين تفسير الآيات مؤملا ظفرا ونصراً "(١)

واضح من هذا النص الذي يبين السبب في تأليف الكتاب أنه جاء استجابة لواقع بدأ يفرض نفسه ، وهو محاولة البحث عن نقطة التقاء بين ذلك الوافد الذي أخذ يبسط سلطانه علي العالم وهو العلم ، وبين سلطان قائم في النفوس والأرواح وهو الدين ، وكلما ظهر مستحدث من مستحدثات العلم يبدأ الناس في التساؤل هل هناك إشارة في الدين إلي هذا المستحدث أم لا ؟ وكأن المسألة تناقض أو صراع بين الاثنين فما دام الدين صالحاً لكل زمان ومكان وشاملا لكل شيئ فلابد أن يوجد فيه ما يوافق العلم وكما قلنا صار الأمر علي هذا المنوال مع ما فيه من تجاوز لحدود كل من الاثنين ، لكنه هو الواقع الذي حدث ، وصار حديث العلماء في مجالسهم.

وكما يذكر الإسكندراني فان السؤال جاء من أطباء مسيحيين رأوا أنه لا توجد إشارة إلي فحم الكوك في كتابهم المقدس، ومن ثم فهم يريـــدون أن يعرفوا هل هو موجود في القرآن أم لا ؟ والأمر علي هذه الصورة يعد نوعاً من الطمأنينة من كلا الجانبين فربما أراد الأطباء المسيحيون أن يطمئنوا إلـي

---

(١) المصدر السابق / المقدمة صـ٣

أن هذا الأمر ليس مذكوراً في القرآن كما هو غير مذكور في كتبهم فيستريحوا لذلك ، أو ربما هم بحكم تدينهم يريدون أن يستندوا إلي نص ديني أيا ما كان ، وأراد الإسكندراني أن يبين لهم أن القرآن كما ذكروا لم يترك شيئا إلا ذكره ! حيث إنهم دعموا سؤالهم بقولهم " وهو الذي يقول لما فرطنا في الكتاب من شئ) فانبري يوضح لهم صدق المقولة بذكر ما ورد في القرآن من إشارات إلي هذا الأمر ، وبالطبع فان البحث في هذه النقطة جر وراءه البحث في كل ما يتعلق بهذه الإشارات فكان الكتاب .

ومعني ذلك أن المنطلق الذي بدأ يسلكه في تفسير الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد اختلف عن منطلق القدماء في نظرتهم له فبينما هم حاولوا النظر إليها كمثبتات لدعائم الإيمان والتوحيد ، راح المحدثون يثبتون عدم تعارضه مع العلم ، وبالرغم من أن هذه الرؤية الحديثة لا تبعد كثيرا عن السابقة من حيث هدفها في إبقاء الاعتقاد في نفوس الناس ، ودفع الأسباب التي تؤدي الي زعزعة ثقتهم في دينهم إلا أنها يمكن أن تعطي صورة أخري لا تليق بالدين إذ تضعه في موقف الدفاع عن نفسه أمام منجزات العلم التي أصبحت ملموسة لدي الناس ، وبالرغم مما في ذلك من نية حسنة وصادقة من القائمين به إلا أنه في النهاية يضع الدين موضع الدفاع ، وهو وضع لا يليق به .

وإذا كان السبب الذي أورده الإسكندراني لتأليف كتابه كان الاجابة علي تساؤل بعض أصدقائه من الأطباء المسيحيين ، فانه يبين في هذا النص أنه لم يأخذ في الإجابة من اجتهاده هو فقط بل راح يبحث في كتب التفسير القديمة ، أي أنه لم يهمل جهود السابقين في هذا المجال ، بل احترمها وجعلها منطلقه في تأليف الكتاب وتصنيفه كما يقول هو :" وتتبعت كلام

كثير من العلماء "، ووقفت علي كلام كثير من العلماء بهمة عالية " ، و"استخرجت من بحار صدورها فرائد فوائد المفسرين الأعلام " وهكذا لم يبخس الرجل حق كل العلماء السابقين والمفسرين .

ولم يزعم الرجل أنه وصل الكمال بل كل ما تمناه أن يحظي كتابه بالقبول ، يقول:"وأرجو أن تتهلل عليه بدور النجاح ويغرد عليه طير القبول والفلاح ، علي أني لا أقول إني صنعته في قالب الكمال أو نسجته علي أحسن منوال لعلمي بأن ميدان الأفكار لاتسلم فيه الجياد من العثار ، فالأمل ممن اطلع عليه أو رمق طرفه إليه سلوك سبيل الإنصاف وترك التحامل والاعتساف وأن لا يبادر بالانتقاد إلا بعد التماس السداد ، مع أن الجواد قد يكبو والصارم قد ينبو والإنسان محل النسيان، فلا أبرئ نفسي من الزلل وأنزهها عن الخطأ والخلل ، وإنما أقول : ما كان صوابا فهو من الله واصل إليّ ، وما كان من خطأ فاللوم يقينا عليّ والرجاء من ذوي المعالي والهمم إذا رفعوا خطأ ما رقمه القلم أن يسبلوا ذيل الإغضاء عليه ، وينظروا بعين الرضا إليه ، ويقبلوا عذره ويقيلوا عثره ، ويدفعوا خلله ، ويحققوا لمؤلفه أمله " (١)

فهو يقر حقيقة أن مجال الأفكار لا يمكن أن يسلم من العثرات لأن العقول والأفهام تختلف ، ومن ثم يطلب من قارئ الكتاب ترك التحامل والاعتساف وأن لا يبادر بالانتقاد وأن يغضي طرفه عن الأخطاء ، وهو أسلوب علمي بناء ، إذ علي القارئ قبل أن يبحث عن الخطأ في كتاب

---

(١) المقدمة صـ٤

مًا ، عليه أولا أن يتلمس مواضع الإجادة والإفادة ، فان صادفه موضع انتقاد فيجب أن يعذر صاحبه ، وما نجاح العلم إلا بالافادة من أخطاء السابقين ولو وصل بحث إلي الكمال لأغلق الباب علي من بعده ، إذ لا يبقي له شئ يبحث فيه .

وحينما دعا الإسكندراني لكتابه بالقبول أشعرنا وكأنه يتوقع الرفض لهذا المنحي وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك مع طنطاوي جوهري ، والذي غالبا ما يبدؤ بالنقد لبعض مسالب الكتاب مادام لايروق الناقد منهجه ، ثم يتطور النقد إلي هجوم ينتهي برفض كامل للاتجاه ، ولذلك سبق هو بالاعتراف باحتمال وجود نقص أو أخطاء في الكتاب وهذا حق طالما أنه جهد بشري ، فلا يوجد جهد بشري خال من العيوب والنقصان .

والحق أنه ذكاء شديد من الرجل أن يواجه قارئه بهذا في مقدمة الكتاب فيجعله يركز أولا علي إيجابيات الكتاب قبل سلبياته حتي يستمتع بما فيه، فان وجد نقصا بعد ذلك فلن يشغله عما وجده من مميزات.

(٤)

قسم الاسكندراني كتابه إلي ثلاثة أقسام جاء كل قسم منها في جزء فخرج الكتاب في ثلاثة أجزاء يتناول كل جزء موضوعاً مستقلا بذاته ، فخصص الجزء الأول للحديث عن الحيوان ، ومن الطبيعي أن يتناول هذا الجزء الحديث عن الإنسان أولا باعتباره أرقيّ الحيوانات ، وخصص الجزء الثاني للحديث عن خلق السموات والأرض ، والجزء الثالث خصصه للحديث عن النبات ، وقدم للجزء الأول بمقدمة عن الأحجار الفحمية ، وتضمنت إجابته علي اصدقائه الأطباء المسيحيين ، ويبدو أنها هي التي قادته إلي

هذا الكم من المعلومات والتي صنفها في أبوابه الثلاثة.

أما المقدمة فقد بدأت بخطبة الكتاب والتي جاءت متوافقة مع أسلوب الكتابة في عصره مصبوغة بلون الكتابة المسجوعة ، وقد سبق أن أشرنا الي نماذج منها في الفقرة ٣ ثم أتبعها بعنوان " المقدمة في الأحجار الفحمية ، وبدأها بذكر بيان قوله تعالي : " الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون " ، ثم تبعها بالآية الكريمة " أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون "، وتبعها بقوله تعالي : " والذي أخرج المرعي فجعله غثاء أحوي " ، وبعد بيان أن كل ذلك راجع إلي تقدير الله كما يقول تعالي " الذي قدر فهدي" ، أخذ في شرح كيفية تكون الأحجار الفحمية مستندا إلي ما قاله الجيولوجيون عن طبقات الأرض وقسمه إلي مباحث أربعة يتدرج فيها في بيان مراحل تكون هذه الظاهرة مبتدئا بالحديث عن الترسب ثم يخص الترسب الفحمي ، ثم الحديث عن مدة تكون الأرض وفي النهاية يتحدث عن الفحم الحجري ، ويثبت فيه أنه من النبات ، وبتأثير من الحرارة علي الخشب وعلي مواد نباتية أخري .

ويبدأ الجزء الأول ، ويتحدث فيه الاسكندراني عن خلق الحيوانات وكيفية تكونها ، ويتضمن ثلاث وخمسين مقالة جاءت في ثلاث وثلاثين ومائتي صفحة ،خص الإنسان منها خمس وثلاثون مقالة شاملة لكل شئون الإنسان : خلقه وتنشئته وتربيته وسلوكه ومماته وبعثه ، وتختص كل مقالة بآية من الآيات التي يوردها في هذا السياق ، ويقسم الحديث في شرحها وبيانها إلي مباحث منطلقة من هذه الآية ، ويبدأ من المقالة السادسة والثلاثين في الحديث عن بقية الحيوانات خلقها ومنافعها ، وأجناسها حيوان وطير وحشرات، وأنواع كل جنس منها ، وعلي قدر فروع الجنس المخصوص

بالحديث كانت تأتي المقالة طويلة في أبوابها ومسائلها أو تأتي قصيرة ، وانتهي بعد ذلك إلي خاتمة في إيجاز وجوه الإعجاز الإلهي فهي التي استنتجها من خلال قراءته وأحيانا يضمنها مقالة لأحد الذين عرض عليهم جهده وامتدحوه .

ويتضمن الجزء الثاني حديثا عن كيفية خلق السموات والأرض ، ثم بين أن فيه مقالات ، ولكنه سرعان ما جري وراء تفريغ المسائل واحدة تلو الأخري فلم يذكر إلا المقالة الأولي فقط ولم نر الثانية ولا الثالثة بل عنون كل آية بعد ذلك بمسألة مهمة ونظن أن هذه الإشارة كانت بديلا لكلمة مقالة ، وجاء هذا الجزء أصغر الأجزاء حيث لم يتعد المائتي صفحة.

أما الجزء الثالث فقد خصصه للحديث عن النباتات وقد عنون فيه المقالة الأولي والمقالة الثانية ، ثم بعد ذلك انشغل بالمسائل ، وصنع فيه ما صنعه في الجزء الثاني فكان كلما هَمّ بالحديث عن موضوع جديد مستنبط من آية أخري عنونه بعنوان مسألة مهمة ، ويذكر الآية ثم يتحدث عن المسائل المتفرعة منها وقد جاء هذا الجزء أطول من الجزءين الأول والثاني لكثرة التفريعات فيه ، حيث تختلف أنواع النباتات وتتنوع تنوعا كبيراً.

(٥)

وبنظرة متأنية إلي منهج المؤلف تلوح لنا عدة ملاحظات منهجية،أولها : أنه لم يسر فيه علي طريقة المفسرين التقليديين من حيث تتبع آيات القرآن الكريم بترتيبها الذي ورد في المصحف الشريف ، ولكنه كان متوافقا مع العنوان الذي وضعه لكتابه ، والذي يوحي بأنه سيركز علي آيات محددة ليتحدث في موضوع بعينه ، وتسميته للكتاب بـ" كشف الأسرار النورانيه القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات

والجواهر المعدنية " يوحي بأنه سيركز حديثه على هذه المسائل وفروعها ، وبالتالي فانه لا يدعي أنه يصنع تفسيراً كاملا للقرآن ، وإنما سيجمع كل الآيات التي تخص موضوعاً من الموضوعات التي أشار إليها في العنوان ، ويتحدث عنها ، وهو ما تم بالضبط في هذا الكتاب .

وعلي هذا قد يثور تساؤل ، ولماذا إذن أدرجنا هذا الكتاب في بحث يتحدث عن التفسير أيا ما كان نوع هذا التفسير ؟، وهو سؤال منطقي ، ولكن الاجابة عليه أيضا يسيرة ، فالرجل أولا بيّن في مقدمته أنه سيتناول موضوعاً تفسيريا وبناء عليه أخذ يتحدث عن مكانة التفسير وأغراضه كما عرضنا في الفقرات السابقة ، وثانيا ، يتناول المؤلف موضوعاته كلها بطريقة المفسرين ويستعرض معاني الآيات ثم يأخذ في الحديث عن الإشارات العلمية فيها ، وثالثا : إن كثيرا من الجهود التفسيرية السابقة انصبت علي موضوعات بعينها في القرآن الكريم مثل مجاز القرآن لأبي عبيدة وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، وكلها عدها العلماء ضمن الجهود التفسيرية للقرآن الكريم ولهذا كله يعد الكتاب جهدا تفسيريا جديرا بالتناول .ثانيا : والتزاما بالغرض والمنهج لم يورد المؤلف الآيات التي سيعتمد عليها مرتبة أيضا حسب ترتيب المصحف أو ترتيب النزول ، بل رتبها حسب ترتيب الموضوع فمثلا حينما بدأ في الجزء الأول يتحدث عن خلق الإنسان بدأها في المقالة الأولي بالحديث عن قوله تعالي : " ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون " (١) وفيه مسائل (٢) ثم تناول في المقالة الثانية

(١) الروم / ٢٠

(٢) كشف الاسرار النورانية جـ١/١١

قوله تعالي :" خلق الانسان من صلصال كالفخار "(١) ثم في المقالة الثالثة قوله تعالي :" ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون"(٢)، وهكذا كما نري تتبع لمراحل الخلق ، وصور التعبير عن المادة التي خلق منها الإنسان ، وحاول الربط بينها جميعا حتي تصل إلي المادة اللحمية كما يسميها هو أيا كان موضع الآيات في سور متفرقة غير مرتبة ، فالآية الأولي من الروم والثانية من الرحمن والثالثة من الحجر .

ويمضي في الجزء الثاني علي هذا المنوال فيبدؤه بالمقالة الأولي وفيها يتحدث عن قوله تعالي في أول سورة الأنعام :" الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور " ويتبعه بقوله تعالي في سورة الفرقان :" ألم تر إلي ربك كيف مد الظل ولوشاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا "(٣) ، ثم يتبعه بالحديث عن قوله تعالي :" أو لم يروا إلي ما خلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون " (٤).

وكذلك الحال مع الجزء الثالث الذي يعده الباب الثالث وهو في تفسير الآيات الشريفة المتضمنة لذكر النباتات يبدؤه بتفسير قوله تعالي :" هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون "(٥)، ويتبعها بقوله تعالي : يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها

---

(١) الرحمن /١٤

(٢) الحجر /٢٦

(٣) الفرقان /٤٥،٤٦

(٤) النحل /٤٨

(٥) النحل/١٠

إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما "(١) وتتوالي الآيات مرتبطة ببعضها ، فالحديث في الآية الأولي يقود إلي الثانية ، فالذي جعله هنا يورد الحديث عن الخمر ، حديثه عن النخيل والأعناب في الآية الأولي ، ويخوص بعد ذلك في تفصيلات أنواع الثمار وكيفية التزاوج بينها والذي يؤدي الي الإنبات ، وهنا يجد الأمر مناسباً لتفسير قوله تعالي (ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين) وهكذا تتوالي الآيات .

ثالثا : نلاحظ كثرة التفريعات التي يتحدث فيها الاسكندراني بالرغم من أنه ينطلق من آية واحدة ليشرح ما فيها من إشارات كونية ، فتبدو التفصيلات وكأنها بحث مستقل ، وقد يتوه الرابط بينها وبين الآية المراد إبراز ما فيها من الإشارات والإعجاز الكوني الدال علي وجود الصانع كما بين الرجل بداية في الباب الأول (الجزء الأول) من الكتاب حين قال " اعلم أن هذا الباب من أعظم وأعجب الآيات الدالة علي وجود الصانع القادر الحكيم الباهر فعلي العاقل أن يتأمل فيما ذكرنا فيه " (٢) أي أنه يطرح هذه الآيات لبيان إعجازها ودلالتها علي وجود الله وأثره وقدرته في الكون.

ولنأخذ أمثلة علي هذا التفريع الذي يعد سلاحاً ذا حدين ، فمرة يكون التفريع مهماً لبيان أجزاء الموضوع بيانا يبين قدرة الله ، ويكون متوافقاً مع نص الآية وأحيانا يكون ممعنا في تفصيلات لاحاجة للموضوع بها ، بل تكون مجرد معرفة عنده يريد أن يذكرها ، ولكي يكون كلامنا واضحا أمام القارئ نعرض الأمثلة الدالة علي هذا الأمر فمثلا حينما يتصدي لتفسير قوله تعالي : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس

(١) البقرة /٢١٩

(٢) كشف الاسرار النورانية /جـ١/١١

وإثمهما أكبر من نفعهما) ، نجده أو لا يسير مع التفسير التقليدي للآية فيقول :" اعلم أن قوله يسألونك عن الخمر والميسر ليس فيه بيان أنهم عن أي شئ سألوا فانه يحتمل أنهم سألوه عن حقيقته وماهيته ، ويحتمل أنهم سألوا عن حال الانتفاع به ، ويحتمل أنهم سألوا عن شربه إلا أنه تعالي لما أجاب بذكر الحرمة دل تخصيص الجواب علي أن السؤال كان واقعا عن الحل والحرمة "(١) ، وينطلق من هذه المسألة إلي حديث عن مراحل تحريم الخمر ، ويأخذه هنا إلي الحديث عن ماهية الخمر ، ثم بيان أن هذه الآية علي صورتها هذه دالة علي تحريم الخمر ثم يتحدث عن الإثم الكبير في الخمر ، ويبين تأثيرها في العقل الذي هو أشرف صفات الإنسان ثم أثره بايقاع العداوة والبغضاء ، ثم إن المواظبة عليها مؤدية في النهاية إلي التهلكة ، ويتحدث في المقام الرابع عن منافع الخمر في الصناعات والعلاج ، ويتبع ذلك ببيان مصادر الخمر وأنها تصنع من خمسة أشياء : العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة ، وينتهي إلي أن الخمر هو المسكر ، مستدلا في كل ما سبق بالمنقول عن الرسول صلي الله عليه وسلم والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، وبالمعقول مما علمه وعرفه من خبرته وصنعته كطبيب دارس لخصائص كل هذه المواد وتأثيرها (٢) وهذا مثال علي التفريعات المهمة والمرتبطة بالموضوع .

أما المثال الثاني علي التفريعات التي يأخذنا فيها إلي معلومات بعيدة عن الموضوع فهو ما ذكره في تفسير الآية الأولي التي بدأ بها الجزء الثالث من الكتاب (وما سماه هو بالباب الثالث) والتي استغرقت نحـــو

---

(١) المصدر السابق جـ٣ /١٢

(٢) راجع تفصيلات ذلك في المصدر نفسه جـ٣/صـ١٢ وما بعدها .

إحدي عشرة صفحة حيث يبدأ بداية اتبعها في كثير من تفسيره للآيات بقوله :" اعلم أن في هذه الآية الاستدلال علي وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات " ثم يشرع في الحديث عن أجزاء الآية فيتحدث عن المطر تفسيراً لقوله تعالي (أنزل من السماء ماءً) ويبين أن المطر قسمان : قسم للشرب وقسم للزرع ، كما بيّن الله تعالي بقوله (لكم منه شراب ومنه شجر) ، ثم يمضي مع الآية (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) وحتي هنا يظل ملتزماً بالآية وترتيبها المحكم ولكنه عند ذكر الزيتون يخرج بنا إلي معارف عن أنواع الزيتون ، وما ينبت منه في آسيا ، والمغرب الأوسط والأقصي ومصر فجنسه أولي من الفصيلة الياسمينية ثنائي الذكور أحادي الإناث ويعلو من خمس وعشرين قدماً إلي ثلاثين إلي خمس وأربعين ، وجذعه غير متساو ، وينقسم إلي فروع عديدة قوية وأوراقه متقابلة سهمية ضيقة حادة ولونها أخضر .." ويستمر في سرد هذه المعلومات عن شكل ولون وطبيعة أشجاره ، ويفيض في بيان خصائص الأنواع المختلفة للزيتون ويعود مرة ثانية إلي الآية وحكمة الترتيب فيها ، وأنه جاء هنا علي هذه الصورة منبها علي مكارم الأخلاق " وهو أن يكون اهتمام الإنسان بما يكون تحت يديه أكمل من اهتمامه بحال نفسه " ، ثم يأتي المبحث الرابع ليتحدث عن زيت الزيتون .

فاذا انتقل إلي الحديث عن النخيل والأعناب بدأ حديثه عن امتيازهما علي سائر الفواكه ثم سرعان ما أخذته معلوماته للحديث عن الفصيلة النخلية، وخصائص النخيل وأعضاء التذكير والتأنيث فيه ، ثم صفاته النباتية ، ثم الصفات الطبيعية للتمر، وما يوجد في تركيبه ، ويتبعه بحديث عن العنب وأنواعه وصفاته النباتية وصفاته الطبيعية، واستعمالاته ، واستخراج الزبيب منه ، وينهي حديثه عنه بذكر بعض فوائد بذر العنب ،

كيف يمكن استخراج زيت منه صالح للإضاءة ، وكذلك ملاحظة طبية عن أضرار القشرة الخارجية للعنب حتي يصل إلي الحديث عن الخمر "(١)

وواضح في هذا النموذج كيف أخذت المسائل تتفرع منه حتي أصبحت أشبه ببحث في أنواع النباتات والثمار والفواكه لدرجة يمكن أن تنسي القارئ الآية التي انطلق منها إلي حديثه المتشعب هذا ، مع ملاحظة أنه لم يكن يربط بينها وبين الآية ولو حتي بكلمة تعبر عن إشارته إلي وجوه الإعجاز فيها.

وللحق فان الجزء الأول جاء أكثر إحكاماً في هذه المسألة فلم يكن يخرج إلي تفريعات إلا إذا كانت مرتبطة بالموضوع،ولذلك كان واعيا بالتصنيف ، وعدد المقالات وذلك علي العكس مما حدث في الجزءين الثاني والثالث اللذين تشعبت فيهما الموضوعات لدرجة أنسته التبويب كما أشرنا سابقا ، فمثلا حين يعرض لتفسير الآية الكريمة (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) يقول " وفيه مسائل " المسألة الأولي " ، وهي أن الله تعالي خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال خلقكم من تراب فنقول : الجواب من وجهين : أحدهما ما قيل إن المراد من قوله خلقكم أنه خلق أصلكم ، والثاني أن كل بشر مخلوق من تراب ، أما آدم فظاهر ، وأما نحن فلأنا خلقنا من نطفة ، والنطفة متولدة من الدم بواسطة الأنثيين ، والدم متكون من المادة اللبنية أي الليمفاوية والناشئة عن الكيلوس المتكون من الكيموس الناتج عن تناول الأغذية في المعدة ، والأغذية من التراب والماء"(٢).

---

(١) راجع المصدر السابق جـ٣/٣-١١

(٢) كشف الاسرار جـ١/١١

وتتبع هذه المسألة مسألة ثانية عن حل التعارض بين الخلق من التراب والخلق من الماء ، ويبين أنهما أصلان ، وكل منهما يصلح لأن يكون الأصل الذي خلق منه الإنسان كما يصح أن يكونا مجتمعين أصلا للإنسان والله علي كل شئ قدير ، وهكذا يسير في هذا الباب ملتزما جداً ، ومختصرا في تفصيلاته الكثيرة ، ذاكراً منها ما يرتبط ارتباطا وثيقا بالآية.

رابعا: إن منهج الإسكندراني جمعي ، أي أنه اعتمد في تأليف كتابه هذا علي جمع ما ذكر في التفاسير القديمة ، وواضح من الكتاب وما ذكره في المقدمة أنه قرأ معظمها ، وقرأها بعناية شديدة فجمع منها مادة الكتاب، وأعتقد أنه اعتمد في معظم الأحيان علي تفسير الفخر الرازي الذي أشرنا إليه في الفصل السابق ، بل ينقل منه نصوصاً كاملة ، مثلما فعل عند تفسير قوله تعالي (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) فقد نقل كلام الرازي كله حتي تفريعات المسائل يقول :" اعلم أن الله تعالي لما ذكر منافع الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان من المنافع الضرورية والحاجات الإنسانية ذكر بعده منافع الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في المنافع التي ليست بضرورية فقال :(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وفي الآية مسائل " المسألة الأولي " والخيل والبغال عطف علي الأنعام أي وخلق الأنعام لكذا وكذا وخلق هذه الأشياء للركوب ، وقوله وزينة أي وخلقها زينة ونظيره قوله تعالي وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً المعني وحفظناها حفظاً ، قال الزجاج نصب قوله وزينة علي أنه مفعول له ، والمعني وخلقها للزينة ، (المسأة الثانية) أصبح القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية فقالوا منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان أكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعني أولي بالذكر وحيث لم يذكره الله تعالي علمنا أنه يحرم أكله، ويمكن أن يقوي هذا الاستدلال الأول من

وجه آخر فيقال إنه تعالي قال في هذه الأنعام ومنها تأكلون ، وهذه الكلمة للحصر فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل بمقتضي هذا الحصر .. إلي آخر ما ذكره الرازي في تفسير هذه الآية ، المسألة الثالثة والرابعة حتي ينتهي تفسير الآية (١).

ونموذج آخر في تفسيره لقوله تعالي (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها) يقول الإسكندراني (اعلم أن قوله يسألونك عن الخمر والميسر)ليس فيه بيان عن أي شئ سألوه، فانه يحتمل أنهم سألوا عن حقيقته وماهيته ، ويحتمل أنهم سألوه عن شربه وحرمته إلا أنه تعالي لما أجاب بذكر الحرمة دل تخصيص الجواب علي أن ذلك السؤال كان واقعاً عن الحل والحرمة ، وفي الآية بحث قالوا أربع آيات نزلت في الخمر ، نزل بمكة قوله تعالي (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا)(٢) وكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم ثم إن عمر ومعاذاً ونفرا من الصحابة قالوا يارسول الله أفتنا في الخمر فانها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزل فيها قوله تعالي:(قل فيما أثم كبير ومنافع للناس)فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلي فقرأ (قل ياأيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فنزل قوله تعالي :(لا تقربوا الصلاة وأنتم سكاري حتي تعلموا ما تقولون)(٣) ثم اجتمع قوم من الأنصار وفيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وناشدوا الأشعار حتي أنشد سعد شعراً فيه هجاء للأنصـــار

---

(١) كشف الاسرار النورانية جـ١/١٩١-١٩٢ وقارن في ذلك مفاتيح الغيب للرازي مج ٩/جـ١٨ صـ ٤٨٠-٤٨٢

(٢) النحل ٦٧

(٣) النساء /٤٣

فضربه أنصاري بلحي بعير فشجه شجة موضحة فشكا إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال عمر اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافيا فنزل :(إنما الخمر والميسر ..) (١) إلي قوله تعالي : (فهل انتم منتهون) فقال عمر : انتهينا يارب " (٢) .

ويستمر الإسكندراني في إبراز ما ذكره الرازي ، وتتعدد الأمثلة علي هذا التأثر الكبير الذي تأثر به ، ومعني هذا أن الرجل كان مقتنعاً بفكر الرازي وبآرائه مما جعله يستمد كثيرا من أفكاره منه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه نقل أفكاره واعتنقها لنفسه فأثبتها في كتابه دون أن يذكر قال الرازي.

وقد يثير هذا مسألة مهمة ، وهي أين الأمانة العلمية ؟ ألم يكن الأولي به أن يشير إلي هذا ؟ ونظن أن الإجابة علي هذا التساؤل سهلة ، فقد أشار الرجل في مقدمته التي تحدث فيها عن منهجه وعن قيمة علم التفسير إلي هذا الأمر ، وأوضح أنه جمع مادته من كتب التفسير والطب، وربما اكتفي بهذا التصريح ، كذلك أشار أحد الذين قرظوا الكتاب ومدحوه إلي هذا الأمر فقال السيد محمد عارف المنير الحسيني الشافعي الدمشقي بعد أن مدحه وأثني علية "اعتمد في مؤلفه علي مفاتيح الغيب فخلا من التعقيد والركاكة والعيب" وكما أشار سابقا حين قال عنه (لقمان العصر ورازيه) مشبها إياه بالرازي كما أكد ذلك محمد علاء الدين عابد في كلمته في هذا السياق :(وكيف لا ومؤلفه العالم الفاضل ، والعمدة الكامل لقمان زمانه وأبقراط أوانه الشيرازي والرازي وابن سينا لا يوجد له ثان محمد أفندي الإسكندراني) (٣) فإذا أضفنا إلي ذلك أن مسألة المنهجية العلمية التي

(١) المائدة / ٩٠

(٢) كشف الأسرار النورانية جـ٣/١٢-٢٨ وقارن الرازي مج٣جـ٦/٣١١وما ربعدها

(٣) كشف الأسرار النورانية/ تقاريظ بعنوان هذا الكتاب في مستهل الجزء الأول من الكتاب

تفرض نفسها الآن لم تكن موجودة ولا مطروحة في مجال التأليف ، فقد صدر الكتاب في زمن الشروح والتلخيصات ، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة ملحة لهذه الإشارة ، كما أن كتاب الرازي لم يكن مشهوراً في ذلك العصر وغير معروف للناس ، وأراد أن يقدمه بأسلوب جديد يسهل علي أهل زمانه أن يقرؤوه ، إذا تأملنا ذلك كله لعرفنا الإجابة علي التساؤل.

وللحق فإن الإسكندراني كان يتدخل في نص الرازي بتغيير بعض مصطلحاته ، أو عبارته وبالاختصار والايجاز أحياناً ، وبالإضافة أحيانا أخري ، فلو تأملنا النصوص التي أوردناها أمثلة علي نقله من الرازي لوجدناه في المثال الأول الخاص بالخيل والبغال والحمير قال في نهاية المسألة: :" واعلم أنه تعالي لما ذكر أولا أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعاً عاماً ضروريا وثانيا أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعا خاصاً ضروريا كما أشرنا إليه آنفا بقي القسم الثالث من الحيوانات وهي الأشياء التي لا ينتفع الإنسان بها في الغالب فذكرها علي سبيل الإجمال فقال :(ويخلق ما لا تعلمون) وذلك أنه لو اطلع الإنسان علي الحيوانات العنكبوتية الآتي شرحها لوجدها قسماً يسيرا من أقسام الحيوانات ، وذلك لأن أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء " ولو قارنا هذا النص بنص الرازي لوجدنا فيه تعديلا ينسب إلي صاحبه ، فالرازي يقول :"لما ذكر أولا أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعاً ضرورياً ، وثانيا : أحوال الحيوانات التي لا ينتفع بها الإنسان انتفاعا ضرورياً " وبالطبع هناك فرق بين النصين فالإسكندراني يري أن كل الحيوانات ينتفع بها الإنسان انتفاعاً ضروريا مع مراعاة التناسب ، فالأولي: انتفاع الأنسان بها عامة ضروري لأنها لازمة لطعامه وسواء ملكها أم لم

يملكها فانه تعود علي الناس عامة ، وبينما يري الرازي أن القسم الثاني وهو المقصود من الخيل والبغال والحمير نفعه غير ضروري من منطلق أنه يمكن الاستغناء عنه أو أنها خاصة بأصحابها الذين يملكونها ، رأي الاسكندراني أن نفعها ضروري ، ولكن علي مستوي معين يخص أصحابها والناس الأخرين وقت حاجتهم إليها ، ومن ثم فان نفعها ضروري ولكن لأشياء خاصة وليست عامة .

والتعديل الثاني يتعلق بالعبارة التالية لقوله تعالي :(ويخلق ما لا تعلمون) يضيف الاسكندراني إلي نص الرازي عبارة " وذلك أنه لو اطلع الإنسان علي الحيوانات العنكبوتية الآتي شرحها لوجدها قسما يسيرا من أقسام الحيوانات " وربما قصد بوصفها (قسما يسيرا) هنا أي كبيرا وليس صغيرا لا شأن له لأنه يكملها بعبارة الرازي ، وهذا ما يتضح من شرحه لها بعد ذلك في المقالة الأخيرة (الثالثة والخمسون) التي خصصها لشرح قوله تعالي (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)(١).

وإذا نظرنا إلي المثال الثاني الذي ذكرناه أيضا نجد الإسكندراني يصيغ بعض العبارات بصياغات مخالفة للرازي فمثلاً يقول :" وفي الآية بحث " بدلا من عبارة الرازي " وفي الآية مسائل " ثم يقول :" قالوا أربع آيات نزلت في الخمر نزل بمكة .." ، وبالرغم من أن هذا التغيير في الصياغة ليست له أهمية إلا أنه دال علي رغبة الإسكندراني في إبراز أن ذلك تقديمه واقتناعه ،

---

(١) العنكبوت / ٤١ وقد ورد الشرح في كشف الأسرار النورانية جـ١/٢٢٩-٢٣٢

ويؤكد ذلك ببعض التهذيب لنص الرازي في هذه الآية إذ يختصر منه بعض العبارات مثلما يفعل عندما يأتي إلي المسألة الثانية في هذه الآية يقول:"أعلم أنه عندنا أن هذه الآية دالة علي التحريم للخمر فنفتقر إلي بيان أن الخمر ما هو ؟ ثم إلي بيان أن هذه الآية دالة علي تحريم شرب الخمر وعلي مضاره ومنافعه، " المقام الأول في بيان أن الخمر ما هو ؟ فقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : كل شراب مسكر فهو خمر ، وهي من جميع الثمار والحبوب القابلة للتخمر ، وقال عمر رضي الله عنه : ألحق بها كل ما خامر العقل من شراب ، ولا شك أن عمر كان عالماً باللغة ، وروايته أن الخمر اسم لكل ما خامر العقل فغيّره ، وروي أبو داود أيضا عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام"(١) .

وإذا قارناه بنص الرازي سنجد تهذيبا واختصارا كبيرا يمكن أن يقال إنه إعادة صياغة لها دلالتها ، فالرازي لا يذكر :" ومضاره ومنافعه بعد عبارة تحريم الخمر مما يوحي بأنه يطرح فهمه لما قاله الرازي وللأية ، كما أنه يتجنب كثيرا من التفصيلات التي دخل فيها الرازي ، وحينما يختصر الإسكندراني كلامه ويركز في القول بالحزمة علي رأي الشافعي ومذهبه ولا يذكر شيئا مما قاله سلفه عن رأي أبي حنيفة فاننا نفهم أنه شافعي المذهب ، ومن ثم فلم يعبأ بابراز رأي أبي حنيفة ، وربما وضع في اعتباره أن كتابه سيطبع في مصر ، ومن ثم سيقرأ فيها ، والمذهب الشافعي هو المذهب الفقهي السائد فيها ، أو هما الأمران معاً .

---

(١) كشف الأسرار النورانية ج٣/١٢،١٣

وخلاصة الأمر أن الاسكندراني لم يكن ينقل عن الرازي نقلاً أصم ، بل إنه كان ينقل عنه بوعي شديد لديه فما وجده مقبولا لديه كقارئ أبقاه كما هو دون تعديل أو إعادة صياغة وما وجد ضرورة لإعادة صياغته حتي يسهل فهمه علي قارئه أعاد صياغته بحذف أو إضافة سواء كان الحذف لكلمات أو عبارات أو حذف فقرات كاملة ليركز علي ما هو ضروري من وجهة نظره لأن الكتاب في النهاية يحمل اسمه ، وهو يتوخي في كل ذلك ظروف عصره حيث لم يصبح الناس مؤهلين بعد لاستيعاب كل هذه التفصيلات .

ولم تكن الإضافة قاصرة علي بعض تلك الكلمات التي ذكرنا أمثلة لها في إطار هذه المقارنة بين المثالين مما يدخلنا في الملاحظة الخامسة علي منهج الإسكندراني ، وهي إضافاته التي أضافها إلي ما نقله عن الرازي.

خامسا : أضاف الاسكندراني كثيرا إلي ما نقله عن الرازي ، وذلك بحكم تخصصه الطبي ، وما يتبع ذلك من ضرورة معرفته بالعلوم الطبيعية فنراه مثلا بعد حديثه عن آية خلق الانسان من صلصال من حمأ مسنون يتبع ما أورده نقلا عن الرازي في هذه المسألة بتعليق من عنده ولكنه يسير فيه علي منهج الرازي يقول :" في بيان المادة اللحمية الفردية وفيه مباحث : المبحث الاول : قال علماء هذا الفن وهم الطبيعيون أن أول هذه المادة كان جوهرا متماثلا ، ثم بعد مدة تشكّل بثلاثة أشكال متميزة عن بعضها تكونت منها البنية الحيوانية ؛ وتلك الأشكال هي المادة الغروية والمادة الليفية والزلالية ؛ وكل منها يتكون من جملة أنسجة فأما المادة الغروية التي يظهر أنها أكثر بساطة من الليفية والزلالية ، وهي مولدة لهما فهي تنتشر في جميع الأعضاء لابد منها يتكون أساس النسيج الخلوي الذي هو أول ما يظهر في ابتداء نمو البنية وتتكون في وسط الأعضاء ويربط بعضها

ببعض والعظام التي هي دعائم الجسم تتكون من تلك المادة وأما المادة الليفية التي هي أكثر أجزاء الدم فهي المكونة للحم بخلقه تعالي ، وأما الماده الزلالية فالظاهر أنه لا يتكون منها إلا معظم المخ والنخاع الشوكي والأعصاب "(١)

ويتبع الإسكندراني ذلك بالمبحث الثاني عن أول خاصية تظهر في تلك المادة والمبحث الثالث في بيان إجمال تكوين الحيوان (٢) وكلها حديث من عنده فهو يتحدث عنها بنفس الأسلوب الذي تكلم به في المبحث الأول ، وإذا نظرنا إلي حديثه هذا لوجدناه أقرب إلي حديث التشريح الذي يتكلم به طبيب متخصص في معرفه أحوال تكون الجسم البشري بدقة ولأنه كلام متخصص جاء مكثفا مركز اعلي نقاط محددة لدرجة أنه لا يعقب عليها بالجملة المشهورة (وهذا دليل علي وجود الصانع) كما اعتاد الرازي وتابعه هو في ذلك .

وتوجد أمثلة كثيرة لذلك في الكتاب بأجزائه الثلاثة حينما تستدعي الضرورة إضافة يريد أن يضيفها علي ما ذكره الرازي أو تطوراً علميا جديدا وسنذكر مثالا آخر لذلك فعند حديثه عن الزرع في تفسيره لقوله تعالي :(ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات)(٣) يقول : أما الزرع فسيأتي الكلام عليه وأما الزيتون فهو نوعان (الأول) ينبت في آسيا والمغرب الأوسط والأقصي فجنسه أولي من الفصيلة الياسمينية ثنائي الذكور أحادي الإناث ويعلو من خمس وعشرين قدماً إلي

---

(١) كشف الأسرار النورانية /جـ١ /١٣

(٢) المصدر السابق جـ١/١٣،١٤

(٣) النحل /١٠

ثلاثين الي خمس وأربعين ، وجذعه غير متساو ، وينقسم إلي فروع عديدة قوية ، وأوراقه متقابلة سهمية ضيقة حادة ولونها أخضر وفي وجهها العلوي العديم الزغب وسلخ وأبيض كأنه فضي ، وجهها السفلي بسبب ما فيه من القلوس الصغيرة الرقيقة الترسية الشكل الهدبية الحافات والأزهار صغيرة مهيأة بتهيئة عناقيد إبطية ومصحوبة بوريقات زهرية قشرية الشكل مستطيلة ، والثمار نوائية لحمية بيضاوية مستطيلة تبلغ في الطول نحو قيراط، وهي خضراء وبيضاء وبنفسجية من الخارج علي حسب الأنواع"(١).

ويستمر الاسكندراني في شرح خصائص هذا النوع من الزيتون إذ يتحدث عن النواة وعن الثمرة ، وطعم هذا النوع واستعمالاته المرتبطة بخصائصه سواء كانت استعمالات اقتصادية ، كما يذكر هو أنه يستخدم في دبغ الجلود نتيجة المواد الحمضية ، وفي الطعام للدهون الكثيرة فيه ، واستخداماته الطبية أيضا وخاصة استخدام أوراقه في استشفاء الحميات ويستند في ذلك إلي علمه كطبيب بالعقاقير كما يستند إلي أقوال كثير من الحكماء والأطباء الذين عرفوا في عصره ، ثم يتحدث عن النوع الثاني وهو الزيتون المصري ، وأصله من الصين والجابون واستنبت بمصر ، كما يذكر شكل أوراقه وبعض خصائصه الطبية ، ويتحدث بعد ذلك عن زيت الزيتون واستعمالاته الاقتصادية والطبية .

وحين يأتي الحديث عن النخيل يذكر ما قاله الرازي الذي آثر أن يختصر القول في تفسيره لقوله تعالي : (ومن كل الثمرات) فقال " تنبيها علي أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره

---

(١) كشف الاسرار جـ٣/٤

في مجلدات ، فالأولي الاقتصار فيه علي الكلام المجمل " (١) أراد هو أن يذكر التفصيلات أو بعض هذه التفصيلات استبدل بقول الرازي قوله هو (علي أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها تأتي علي التوالي : المبحث الثاني في النخيل "(٢) وأخذ يفصل القول في الفصيلة النخلية ويدخل مباشرة فيما يؤخذ منها من أدوية مرضية ملطفة كالتمر ، ويذكر أن أنواعه تزيد علي مائتي نوع ، ثم استعمالاته الاقتصادية ، ويأتي المبحث الثالث عن التمر وأنواعه ، والمبحث الرابع في الصفات النباتية للنخل والمبحث الخامس في الصفات الطبيعية للتمر والمبحث السادس فيما يوجد في تركيب التمر والمبحث السابع في الاستعمال والمقدار المعقول منه ويتبع ذلك بحديث عن الأعناب وصفاتها النباتية والطبيعية ومشتقات العنب واستعالاته الغذائية والطبية والصناعية كالزبيب.

وإذا تأملنا كل ما ذكره وجدناه ينطلق من معرفته بعلوم النبات ، وهي علوم مهمة وضرورية للطبيب ،ثم يأتي أيضا في إطار تخصصه الطبي فكل نوع من الأنواع يذكر منافعه الطبية ، وما يفيد صحة الإنسان منه ، ويبين في خاتمة الحديث عن هذه الأنواع كيف يدل ذلك علي عظمة الخالق ، وإحاطة القرآن الكريم بكل ما يفيد الإنسان متمشيا مع منهج الرازي في بيان الاستدلال علي وجود الله الصانع القادر المختار من خلال كل هذه التفصيلات التي توضح أن القرآن لم يذكرها عبثا وإنما أتبع الله هذا بقوله(إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

---

(١) الرازي مفاتيح الغيب مج٩/جـ١٢/٤٨٧

(٢) كشف الأسرار النورانية جـ٣/٦

بعد استعراضنا لمنهج المؤلف في كتابه نستطيع أن نقول إنه يعد مرحلة مهمة من مراحل تطور هذا الاتجاه التفسيري ، وبالرغم من كثرة اعتماد الإسكندراني علي الرازي في كتابه إلا أنه بقيت له بصماته وخصائصه المميزة له .

أولاً : في تبويبه وتصنيفه للكتاب ، فهو لم يتناول آيات القرآن الكريم مرتبة حسب ورودها في المصحف كما فعل الرازي ومن ثم لم يشأ أن يقول إنه تفسير كامل للقرآن ولكنه تفسير من لون خاص يركز علي قضية بعينها وهي اشتمال القرآن الكريم علي الإشارات الكونية وعلي الظواهر العلمية ، ويدخل بذلك في إطار ما يعرف بالتفسير العلمي للقرآن .

ثانيا : إضافاته التي أضافها إلي ما نقله عن القدماء وخاصة الرازي ، وهذه الإضافات تنبع من تخصصه الطبي ، ومن تطور العلوم في عصره ، فاذا كانت معلومات الرازي نابعة من قراءاته في كثير من المصادر التي نقل عنها ، ومعظمها كانت معرفة نظرية إلا أن معلومات الإسكندراني كانت نابعة من تجربة تطبيقية ، فالرجل كان طبيبا متخصصا أي أن ما قاله يحتمل التصديق ، لأنه ناتج تجربة عملية في مجال التخصص والحياة ، وهذا يعطي لكلامه تأثيرا أكبر في قارئه الذي يصدق الحديث المنطلق من تجربة أكثر مما يصدق الحديث النظري .

ثالثا : لم يعتسف الإسكندراني آيات القرآن ، ويطوعها لمفاهيمه أو لمجرد الإجابة علي تساؤل أصدقائه من الأطباء المسيحيين ، بل سار علي منهج معتدل متفق مع أسلوب الرازي الذي أخذ منه الكثير ، وأضاف إليه

أيضا في نفس الإطار ، وهو الانطلاق من آيات القرآن لبيان أوجه اعجازه العلمي لبيان شموليته كدستور للدين والدنيا معاً .

وأخيرا فاني أود أن ألفت نظر القارئ إلي أنني تمشيا مع المنهج الذي التزمته في هذا البحث ركزت علي منهج المؤلفين أكثر من إيراد الأمثلة الكثيرة لتضخيم عدد صفحاته ، بل الأهم إلقاء الضوء علي الخط الذي سار فيه هذا الاتجاه حتي لا يتشتت ذهن القارئ ، بل يظل وعيه شديداً بتطور الظاهرة ، وتأثر هذا التطور باختلاف العصور والتطورات العلمية التي يشهدها كل عصر والتي انعكست بالضرورة علي فهم النص القرآني في العهود المختلفة .

الفصل الثالث
الشيخ طنطاوي جوهري
ونضج التفسير العلمي للقرآن

لم يكد القرن العشرون يهل حتي بدأت الثمار التي بذرت بذورها في القرن التاسع عشر تنضج في كافة المستويات، فرقي الأدب والفكر خطوة كبري علي طريق الإبداع والتأليف، وانعكس ذلك علي الحياة الاجتماعية التي اخذت تنمو فيها ظواهر التغير والتطور وكان لابد أن يثمر ذلك عن نهضة في الفكر الديني، وتواكب ذلك مع ظهور جمال الدين الأفغاني وحركته الإصلاحية التي كان لها أثر كبير في تجديد الفكر الديني خاصة أن دعوته وجدت صدي كبيراً لها في مصر، وتبناها من بعده الإمام محمد عبده وتلاميذه.

ولأن هذه الحركة كانت مصاحبة لهذا الاتصال الحضاري الكبير بالغرب الأوربي الذي ازدهر فيه العلم والتكنولوجيا، فقد تأثرت حركة التجديد هذه بما وصل اليها من معارف علمية، وأخذ رجالها، الافغاني وعبده، يفيدون منها في دعوتهم إلي التجديد، وكانت صورة المقارنة بين ماوصلت إليه حضارة الغربيين الذين يتسلحون بالعلم، وبين واقع الأمة الإسلامية المتخلف كما صورها أبو الأعلي المودودي في كتابه "نحن والحضارة الغربية" أحد الأركان الرئيسة التي اعتمدت عليها هذه الدعوة.

ومن الطبيعي أن توتي هذه الدعوة ثمارها في مجال تفسير القرآن الكريم في ضوء هذا التقدم العلمي بصورة تختلف عن الجهود السابقة في تفسيره، وفي الوقت نفسه تعد تتويجاً لها، ونضجا لهذا المنهج الدي سلكه بعض السابقين ضمنا في إطار تفسير شامل للقرآن الكريم او تركيزا علي

ظوهرة الاعجاز الكوني في القرآن مما يجعل هذه الجهود الجديدة قمة أو نضجا لهذه الظاهرة (ظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم (ويمثل تفسير (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) للشيخ طنطاوي جوهر مانعده قمة او نضجاً لهذه الظاهرة.

(١)

كان ظهور الشيخ طنطاوي جوهري مواكبا لحركة النهضة الفكرية والدينية العامة التي شملت القطر المصري بل وكثيرا من البلاد الإسلامية الأخري في الشرق الأقصي الإسلامي والتي حدث بينها وبين مايدور في القطر المصري من تفاعل وتأثير وتأثر متبادل، فقد كانت جميعها ترزح تحت نير الاستعمار الأوربي حقيقة والسيطرة التركية اسما ، ووجد كثير من أهل هذه البلاد خاصة المسلمين منهم في تجديد الفكر الديني الإسلامي فرصة عظيمة لشحذهم الناس لمناهضة هذا الاستعمار البغيض بصورتيه الأوربية والتركية فظهر جمال الدين الأفغاني بدعوته الإصلاحية المستمدة أركانها من مبادئ الإسلام التي تحث علي الحركة والتقدم، وكذلك أبو الأعلي المودودي وابو الحسن الندوي وغيرهم من العلماء الذين قادوا حركة النهضة في الشرق الإسلامي، وكان لها صداها في البلاد العربية وخاصة مصر الأكثر والأسرع استجابة لها . في خضم كل ذلك ظهر طنطاوي جوهري الذي ولد في قرية من قري الشرقية سنه ١٨٦٢م (١)وتعلم القرآن في أحد مكاتب القرية،وانتقل

---

(١) يذكر الذهبي في التفسير والمفسرون نقلا عن كتاب الأعلام للزركلي ص٢/٢٣٣ أنه ولد سنه ١٩٧٠ وتوفي سنه ١٩٤٠.

إلي الأزهر الشريف سنه ١٨٧٧م ودرس فيه علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية، وانتقل إلي مدرسة دار العلوم سنه ١٨٨٩ وتخرج فيها سنه ١٨٩٣فعين مدرسا بالمدارس الابتدائية ثم انتقل الي المدرسة الخديوية وبعدها عين مدرساً للتفسير بمدرسة دار العلوم، واختير ضمن هيئة التدريس بالجامعة المصرية حين إنشائها حتي أحيل إلي التقاعد، وتفرغ للكتابة والتأليف حتي وافته المنية في يناير سنة ١٩٤٠م (١)

ولا شك أن هذه الرحلة والتنقل بين مدارس العلم، الكتاب والأزهر ودار العلوم متعلماً، وكذلك التنقل بين المدارس الابتدائية والثانوية ودار العلوم والجامعة معلماً، كان له أثر كبير في ثقافته، هذا بالإضافة إلي شغفه الشديد بالعلم بشتي فروعه، بالإضافة إلي خياله الواسع الذكي المتأثر إلي درجة كبيرة بصفاء الطبيعة وجمالهاالذي تربي فيها، كل ذلك كان له الأثر الواضح في إنتاجه العلمي الغزير، وكذلك في شخصيته التي تميزت بصفات كثيرة جعلته يلعب دوراً بارزا في الحياة العلمية والثقافية بل والحياة العامة أيضا.وقد أسهم في هذا التكون العلمي ثقافة عربية أصيلة استقاها من دراسته بالأزهر من دار العلوم، حيث درس في الأزهر القران الكريم وعلومه والتفسير والحديث، وعلوم الفقه ومذاهبه التي تتسم بسمات عقلية ناضجة لم يستوعيها التابعون الذين آثروا اتباع هذه المذاهب دون النظر الي الجهد العقلي الجبار الذي تميز به اصحابها ،ولولاه ماناقشوا أدق التفصيلات

(١) د، عبد العزيز جادو / الشيخ طنطاوي ص٢ /٤٨١ جوهري دراسة ونصوص ط دار المعارف ١٩٨٠ ص١١ - ١٩.

والتفريعات علي المسائل الأصولية الكبري ليثبتوا عدم جمود العقل العربي عند نصوص محددة، أفاد الرجل من كل هذا خاصة ان عنده ميلا شديدا منذ صغره الي النظر والتدبر، وقد أضاف إلي ذلك ثقافة غربية واسعة بعدما تعلم الإنجليزية واتقنها إتقاناً كبيراً وذلك بعد انتقاله للتدريس بالقاهرة، وقد ظهرت آثارها في مؤلفاته الكثيرة إذ ينقل فيها عن كثير من الأعلام الأوربيين علي اختلاف تخصصاتهم.

ولم يقتصر إسهام الرجل علي إنتاج علمي غزير في شتي نواحي المعرفة، بل كان له دوره الوطني المتميز من خلال كتاباته الصحفية السياسية التي ألهبت حماس الشباب من قراء الجرائد والدوريات السائدة في ذلك الوقت بالإضافة إلي الجمعيات الدينية التي أسسها مثل "جماعة الأخوة الإسلامية" والتي شارك فيها عضوا مثل "جمعية البر والإحسان وجمعية الشبان المسلمين" التي كان يري فيها مثلا طيبا للحركة الإسلامية في الشبيبة الناهضة، كما كان عضواً بارزاً بدائرة القاهرة الروحية، وتولي رياسة جمعية المواساة الإسلامية التي بدأت علي يديه، وكان أحد مؤسسيها (١).

(٢)

تنوعت مؤلفات الشيخ طنطاوي جوهري تنوعا يعبر عن ثقافته الواسعة وعن قدرة كبيرة علي التأليف، فقد اقتربت مؤلفاته من الثلاثين مولفاً تتناول كثيرا من الموضوعات ذات الأهمية البالغة ليس لأهل عصره فقط بل لما تلاه من عصور، وأولها "نظام العالم والأمم" أو الحكمة الإسلامية

(١) المرجع السابق / ٤٠

العليا، وقد قدم له برسالة صغيرة جاءت في نحو ستين صفحة من القطع الصغير بعنوان "الزهرة في نظام العالم والأمم"، ويتحدث فيها عن عجائب الزهور، وقد نقلها عن اللغة الإنجليزية من كتب اللورد إقبوري، ثم تحدث بعد ذلك في كتابه عن عالم النبات والحيوان والإنسان والمعادن ونظام السموات وعجائب الملك والسياسة الإسلامية والسياسة العامة باعتبار أنها أمم متشابهة في أن كل أمة لها نظامها الذي يسيرها بقدرة الله، وقد جاء الكتاب في جزءين يحتويان علي نحو ألف صفحة ونشر أول مرة في مصر سنة ١٩٠٥م، وأعادت طبعه للمرة الثانية المكتبة التجارية بمصر سنة ١٩٣١م، وقد أشادت به الجمعيات العلمية في فرنسا وانجلترا والجمعية الآسيوية الفرنسية التي كانت تضم عددا كبيرا من المفكرين والعلماء والفلاسفة العظام، والتي أشادت بجهد الرجل في مقال لها في مجلتها التي صدرت في يناير سنة ١٩٠٨م بقولها " ان كتاب نظام العالم والامم الذي ظهر المجلد الآول منه أحد كتب عدة ألفت للنشأة الإسلامية الحديثة ، وهذه الكتب بناها المؤلف علي نظريتين اثنتين:

أولاهما :إن الدين الإسلامي دين الفطرة، أي أنه ملائم للعقول الإنسانية وموافق للطباع البشرية.

وآخرهما: أن هذا الدين علي مقتضي ماقدره المؤلف يسوق إلي استكناه جميع النواميس العلمية وسائر القوانين الطبيعية الشاملة لهذا الكون كله، الناظمة لعقده(١).

---

(١) نقلا عن عبد العزيز جادو/ الشيخ طنطاوي جوهري ص٢١

وهذه رؤية ذكية تتم عن قراءة واعية لإنتاج الشيخ طنطاوي جوهري الذي يدور فعلا حول هاتين النقطتين، ولو نظرنا إلي بقية مؤلفاته لوجدناها كلها فعلاً تسير في هذا الاتجاه فعناوينها تدل علي ذلك- نهضة الأمة وحياتها ، وجمال العالم، والنظام والإسلام، واين الإنسان، وأصل العالم، وأحلام في السياسة، ثم التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم، وجواهر العلوم، وميزان الجواهر في عجائب الكون الباهر، ورسالة الحكمة والحكماء، وجوهر التقوي في الأخلاق، وسوانح الجواهر، وبهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية، والقرآن والعلوم العصرية، وآخيرا كتابه "الجواهر في تفسير القرآن" ، هذا بالإضافة إلي بعض الكتب والرسائل التي ألفها لطلابه في دار العلوم مثل" مذكرات في أدبيات اللغة العربية" والسر العجيب في حكمة تعدد أزواج النبي صلي الله عليه وسلم، والموسيقي العربية، وكتاب التربية للحكيم الألماني كانط، والقول الصواب في مسألة الحجاب، والفرائد الجوهرية في الطرق التحوية، وبراءة العباسة أخت الرشيد.

ومعظم هذه الكتب سواء التي ألفت ككتب أو التي كانت عبارة عن مقالات ثم جمعها في كتب نجد عناوينها تدور حول هاتين الفكرتين، فكثير منها له نفس الاسم الذي وضعه لكتابه في التفسير، لاحظ كلمة "جوهر" وتكرارها في هذه الكتب، كما نلاحظ ألفاظ "الجمال" والنظام" "والعالم" " والامم"، وهي ذات دلالة في بيان هذه الفكرة التي قد يكون لثقافته الصوفية. خاصة تلك التي تركز علي فكرة وحدة الوجود -أثر كبير فيها ، وان كانت قد صيغت صياغة أخري تختلف عن الصياغة القديمة كما يدل محتوي هذه الكتب.

فكتاب نظام العالم والأمم يركز علي تشابه النظام داخل العوالم المختلفة (النباتية، والحيوانية، والإنسان وغيرها) وكذلك كتابه جمال العالم الذي طبع مرتين: الأولي عام ١٩٠٢ في نحو ١٤٠ صفحة، وطبع مرة ثانية ١٩١٠م بعنوان "جمال الله في جمال العالم" والذي قيل فيه لله أنت مؤلف جمال العلم ونظائره من نفائس الأسفار وبدائع الآثار، فإنك لاتفتأ تحبب إلي الإنسان هذا العالم، وتنبهه إلي ماأودعه الله من الخلقة وأحكام الصنعة وباهر الأسرار الدالة علي أنه الواحد"(١) وكذلك كتاب"ميزان الجواهر في هذا الكون الباهر" الذي طبع في سنة١٣١٨هـ في نحو ٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط، ويدور حول نفس الفكرة بيان مافي الكون من عجائب تدل علي قدرة الخالق؛ ومعني الصياغة الجديدة التي أشرت إليها أن طنطاوي جوهري يبين وحدة العالم أو الصبغة القديمة وحدة الوجود في صورة بيان جمال العالم النابع من جمال الله سبحانه وتعالي، ومن ثم كانت إشارته المتكررة في القرآن الكريم إلي النظر في الكون وبديع صنع الله فيه كما يقول في خاتمة كتابه جواهر العلوم الذي جعله الجزء الأول أو تقديماً لكتاب ميزان الجواهز، يقول " وقد تم بحمد الله ماقصدته من كتاب جواهر العلوم، وقد اتبعت فيه خطة الترقي من الأسهل إلي السهل، وجعلته سلما إلي فهم ماهو ارق وأرقي في الفكر وهو "ميزان الجواهر" وجمعته مستقلا علي حدته، وذكرت فيه بواطن العوالم وقواها وعجائبها الباطنة مع المقارنة بين آراء الفلاسفة الأقدمين ومقابلته بكلام الفلاسفة الأوربيين ووزن الأقوال بالحجج

---

(١) من كلمة الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي محرر مجلة البيان نقلا عن عبد العزيز جادو ٢٦/

العقلية، فهاك أيها الأخ، فقد جمعت لك في هذا الكتاب من دقائق الكون وبدائع العلوم ولطائفه رغبة استجلائك نفائس عرائسه"(١)

أما كتابه" أين الإنسان" فيقع في ٢٧٢ صفحة من الحجم المتوسط والذي طبعته دار المعارف، ولم تثبت فيه تاريخ طبعته (٢) فهو صرخة إلي العالم ليتحقق فيه السلام والعدل ليعم الرخاء وتنتشر السعادة في ربوع الأرض كما قال في مقدمة الكتاب" هذا كتاب كتبته للناس، خاطبت به حكماء الخافقين، وعلماء المشرقين، وفلاسفة المغربين تبصرة وذكري للعادلين، من كل نبيه ونبيل، وعالم وجليل، وملك وعظيم، ووزير خطير، ، ونائب عن أمته كبير ذكري للأمم وعبرة للدول، وسعادة للناشئين، عسي أن يعدل الناس عن ظلمهم، ولايتبعوا غيهم، ويسيروا علي الصراط المستقيم إنني ضممت جوهرة الإنسان إلي فلذة الحيوان في النظام، وقرنت نظام الكوكب الدري بما رآه بسمارك وسلبوري، وسويت مابين نواميس الأحجار في سقوطها، وقوانين الكواكب في هبوطها، وبين نظام الأمم الأرضية، وأحوالها السياسية(٣)

ويمضي الشيخ في مقدمته مبيناً هدفه من الكتاب وداعيا إلي تأمله، والاهتمام بما فيه خاصة أنه قبل طبعه كان قد قدّمه إلي مؤتمر الأجناس العام

---

(١)خاتمة كتاب جواهر العلوم .

(٢) واضح مما كتب تقريظا للكتاب في مجلة الملاجي العباسية (سنة ١٩٢٩ وفي الكتاب الذهبي الذي أصدرته في مارس سنه ١٩٣١ أن الكتاب طبع في العشرينات.

(٣) مقدمة كتاب"أين الإنسان "

الذي عقد بانجلترا في آواخر شهر يولية لسنة ١٩١١ م.كما ذكر هو في المقدمة، ومن ثم تضمن كتابه عشرين فصلا تناولت الموضوعات التالية : بيان استخراج السلام العام في الأمم من النواميس الطبيعية، والنظامات الفلكية، والفطر الإنسانية، وبنيان السياسة علي أساس الطبيعة، وأن مدنيّة اليوم حيوانية، ودعوة الناس للإنسانية الحقيقية، وبيان أن الإنسان لم يفهم إنسانيته، ولم يستخرج قوته، وخطاب موجه لفلاسفة الأمم ونوابها وملوكها، ودعوة الأولين لبحث هذا الموضوع، والآخرين للتعاون علي العمل ونلاحظ توافق الأفكار والموضوعات التي طرحها في هذا الكتاب مع الهدف الذي سعي من أجله والذي كرّس جل حياته من أجله، وهو إبراز عالمية الدين الإسلامي وعصريته، وقد ابتكر في تأليف هذا الكتاب أسلوبا فريداً في نوعه إ ذجعله علي هيئة حوار بينه وبين روح من الأرواح القاطنة بمذنب هالي لما اقترب من الأرض.

وقد فعل نفس الأمر في كتابه" الأرواح" الذي طبع أربع مرات الأولي سنة ١٩١٨ والأخيرة سنة ١٩٧٨ صدرت عن دار النهضة العربية، وتناول فيه موضوعات خاصة بعلم الأرواح، وفي كل موضوعاته التي تناولها في هذا الكتاب، كان يحاول الربط بين ماورد في الكتاب والسنة وما توصل إليه علماء النفس أعضاء الجمعية النفسية بأوربا الذين كانت تربطهم صلات قوية به حيث كان عضوا بارزا بهذه الجمعية، وقد بدأه بمقدمة علي هيئة حوار بينه وبين شاب قازاني مسلم جاء ليسأل عنه بعد قراءته لكتبه، واشترك الاثنان في الشعور بتدهور حال المسلمين، وفي الإحساس بضرورة إيجاد مخرج لهذه الأزمة، وأن هذا المخرج لابد أن يكون من القرآن والسنة

بضرورة فهمهما في ضوء معطيات العصر، وأنه لابد من مشاركة الآمم المتقدمة هذا التقدم، وهي الوسيلة الوحيدة للخروج من الأزمة، ووضع الأمة الإسلامية علي خريطة العالم(١).

وتمشيا مع هذه الرؤية يجبئ كتابه"القرآن والعلوم العصرية" والذي يحث المسلمين علي الأخذ بالعلوم الحديثة حتي يحققوا ما وعدهم الله به من القيام علي الأرض بالعدل، ويستعرض الشيخ في هذا الكتاب مدي اتفاق القرآن مع العلوم العصرية التي غابت عن القدماء، مما يشعر بأنه يمكن أن يكون مهادا نظريا لتفسيره الكبير " الجواهر في تفسير القرآن" وتتمتع أفكاره فيه بالثقة الزائدة في قدرة المسلمين علي استيعاب هذه العلوم وتمكنهم منها مما يؤهلهم لقيادة العالم ولعل ماقاله في خاتمة الكتاب مايؤيد هذا ويلخص فكرته إذ يقول:" ولقد أصبحت موقنا إيقانا تاماً بطريق الإلهام وما أعرفه من أحوال المسلمين أن هذه الحركة العلمية ستجعل المسلمين حاملين رايات الفتح العلمي في مستقبل الزمان، وبهم يرتقي نوع الإنسان، ويكونون نوراً وهدي للعالمين".

وقد تكررت هذه الخواطر في تفسيره، وربما كانت حدساً منه، وهو نفسه يصرح بأنها الإلهام وخيال ظل مسيطراً عليه منذ بداية رحلته المعرفية والتأليفية، حيث ألف كتاباً بعنوان "التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم" في سنة ١٩٠٥م ووجهه إلى امبراطور اليابان بمناسبة انعقاد مؤتمر الاديان باليابان سنة ١٩٠٦، وجاء الكتاب في اثنين وخمسين بابا، وقد سمي الباب بالجوهرة، ،نلاحظ هنا تشابه ذلك مع المنهج الذي سلكه في التفسير حيث كان يخرج من تفسير الآيه بعدة جواهر تنقسم إلى يواقيت وهكذا،

(١) راجع مقدمة كتاب الأرواح ط دار النهضة العربية ١٩٧٨م.

وفي جوهرة منها يفسر آية من آيات القرآن في ضوء اكتشافات العلم الحديث، ولعلنا نستطيع القول بأنه كان تجربة أولي في تفسير القرآن الكريم، توقف عنها بعد ذلك أو تبعها بتجارب علي نفس الطريق في ميزان الجواهر، وجواهر العلوم، والقرآن والعلوم العصرية.

وتأتي بعد ذلك مجموعة الكتب التي ألفها سواء لطلابه بالمدارس أو بالجامعة، وكانت معظمها في الأدب أو الفلسفة أو الموسيقي، أو مذكرات يومية مثل رسالة الحكمة والحكماء وهي مجموعة رسائل تسير في نفس الإطار الذي سار فيه كتاب نظام العالم والأمم، وجوهر التقوي في الأخلاق الذي ألفه لطلبة دار العلوم، والمدخل في الفلسفة، وبهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية ومذكرات في أدبيات اللغة العربية، ورسالة الهلال وقد ألفها عام ١٩١٤م حول هلال رمضان، والقول الصواب في مسألة الحجاب وهي ثلاث مقالات للرد علي كتاب قاسم أمين في تحرير المرأة، وبراءة العباسة وهو كتاب أدبي تاريخي يرد فيه علي ماجاء في رواية جورجي زيدان عن" العباسة أخت الرشيد" التي توحي بأن نكبة البرامكة كانت بسبب علاقة غير شرعية بين العباسة وجعفر البرمكي، ورسالة عين النملة، وهي عبارة عما دار بينه وبين علماء الطب من حوار حول مملكة النمل" .

كما ساهم بالترجمة فقدم" جوهرة الشعر والتعريب" الذي ترجم فية لمجموعة من الشعراء الإنجليز، بالإضافة إلي قصائد من نظمه، وكذلك كتاب "التربية" للحكيم الألماني كانط وقد ترجمه بتصرف وليس بنصه كاملا وقدم له بمقدمة بين فيها توافق مادعاإليه من مبادئ في تربية النشئ الشرقيين

وما جاء في كتاب كانط عن التربية، ويربط أفكاره في هذه المقدمة بما جاء في القرآن الكريم، ثم ألف كتابا بالإنجليزية بعنوان" أحلام في السياسة، وكيف يتحقق السلام العادل؟" ثم عاد وترجمه إلي اللغة العربية، كما يذكر هو في مقدمة الكتاب. ثم يأتي كتابه سوانح الجواهر، وهي مذكرات يومية يسجل فيها ملاحظاته ومشاهداته اليومية، وقد تناولت موضوعات شتي في الاقتصاد والصناعة والأدب والتربية والعلوم وغير ذلك من الموضوعات التي تثور في ذهنه كرد فعل لما يلاحظه ويشاهده يوميا.

(٣)

والملاحظ في معظم كتبه أنه ينطلق من القرآن والسنة في كل الموضوعات التي يتناولها يحاول الربط بينها وبين ثقافاته المتعددة، يطرح من خلال هذين المنطلقين رؤيته الإصلاحية التي كرس حياته كلها من أجلها، والتي من خلالها يدعو إلى استنهاض الأمة الإسلامية في كل بقعة من بقاع الإسلام، ولنأخذ بعض الأمثلة من كتبه فمثلا في كتابه "ميزان الجواهر" يتحدث عن الحب وأقسامه، ويبين أنه أربعة أقسام: مذموم وهو الحب الشهواني، وحب الناس بعضهم بعضا للكمال والآداب، وأن تحب جميع العوالم للبحث عن حقائقها، ومحبة مدير هذا الكون، وبعد هذا التقسيم يقول:" واعلم أن كل درجة من هذه الدرجات أعلي مما قبلها ومقدمة لما بعدها إلا الأولي فانها قد تعد فسقا وفجوراً مردية إلي جهنم وبئس المصير؛ اللهم إنانسالك أخلاقاً عالية، ونفوساً صافية حتي تصل إليك، فالحب لايمكن إلامع تهذيب الأخلاق وكلما تهذبت النفس وصفت سعي الإنسان في نفع امته لحبه لها، ولذلك تري أهل الكمال يحرصون علي منافع امهم حبا وشفقة

مع بحثهم عن الحقائق الكونية، ثم يغلب علي نفوسهم حب ربهم: قال تعالي حكاية عن يوسف عليه السلام: (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّ في الدنيا والآخره توفني مسلماً وألحقني بالصالحين)"يوسف: ١٠١" فالملك اشارة إلي نفع أبناء الجنس، وتعليم التأويل إشارة إلي التمكن في العلم، ومابعده إشارة إلي ولوع النفس بالرب سبحانه وتعالي، وأما المرتبة السفلي فهي متقدمة عنده عليه السلام بالعفة التي مدح بها في أول السور فافهم النكث القرآنية العجيبة(١).

وهكذا يطرح الفكرة التي يريد أن يدعوا إليها ثم يدعمها بآية من القرآن بتأويله هو لها، فقد بيّن أن الحب الصحيح والصالح يكون بالضرورة نافعاً لأمته ، ويدعم قوله بتأويل لقوله تعالي: انت وليّي في الدنيا والآخرة" يبين أنه تعبير عن ولوع النفس بالرب سبحانه وتعالي، ويأخذ الشيخ بعد ذلك في إيراد آيات القرآن الكريم الداعية إلي الحب يقول" ولما كانت البغضاء منافية لمقصود الشرائع الإلهية ورد قوله تعالي: (وأن تعفوا أقرب للتقوي) (٢)، (فمن عفا وأصلح فأجره علي الله إنه لايحب الظالمين(٣)، وقوله تعالي:(ولاتنسوا الفضل بينكم)(٤)، وقوله عليه الصلاة والسلام "لايؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه مايحب لنفسه"، ولكن مع هذا كله يجب علي العاقل

---

(١) طنطاوي جوهري/ ميزان الجواهر ط المطبعة التجارية ١٣١٨هـ/١٩

(٢) البقرة / ٢٣٧ (٣) الشوري/٤٠

(٤) البقرة / ٢٣٧

الاحتراس من الاعداء واهل الشر والخداع، وان يكون علي حد وسط بلا إفراط ولاتفريط" (١).

وينعي الشيخ بعد ذلك علي الذين يقرءون القرآن بدون وعي، وتقليداً لمن سبقهم من الاقدمين دون تأمل مافيه من كنوز ومعارف يقول: "ما أجمل الحكمة وألذّ العلم !كم من قارئ يقرأ القرآن ولايعقل مافيه من الحكم، ولايذوق حلاوة لطائف معانيه؛ تأمل في:- مدارك الإنسان التي لا يصل العلم إليه إلا بها وهي : ست: العقل، والحواس الخمس تجد بينها تفاضلا وهي درجات بعضها فوق بعض، فما كان منها أبعد مرمي بحيث يدرك مابعد عنا فهو أشرف، وما كان منها مقصوراً علي إدراك القريب أو الملاصق فهو أدني مرتبة وأقل شرفاً: فالقسم الأول هو العقل والبصر والسمع، والآخر هو الشم واللمس والذوق، وقد ذكرناها الآن مرتبة باعتبار درجاتها من الأعلي إلي الأدني، فكانت نعم الله علي الإنسان في القسم الأول أعظم ومطالبته بالشكر عليها أكبر، ولذلك خصت بالذكر في تلك الآيات المتقدمة، فافهم نكت القرآن وإشاراته"(٢)

وهو المنطق الذي دفعه بعد ذلك إلي تفسير القرآن الكريم بهذه الرؤية، ضرورة إيجاد فهم جديد للقرآن في ضوء معطيات العلوم العصرية، وبإفادة كاملة مما قدمه العلماء في الشرق أو في الغرب، وبيان اتفاق الفكر الإسلامي ولاسيما أصليه القرآن والسنة مع كل هـــــذه المعطيات،ويوضح

(١) ميزان الجواهر / ٢٠

(٢) ميزان الجواهر /٢١

كذلك توافق الفكر الغربي مع الفكر الشرقي في نقاط كثيرة، ويبرز هنا دور الغزالي في هذا المجال بل ويبرز تاثيره في فكر طنطاوي جوهري.

ولو تأملنا كتابه نظام العالم والأمم لتأكدنا من صدق هذه المقولات فهو يبدأ الكتاب ببحث عن الزهرة وفي أحد فصوله يتحدث عن "القرآن والمسلمون ومتآخرو الافرنج "يقول فيه : تعجب ياآخي من هؤلاء الأقوام في ديارهم تراهم يعظمون الحكيم سنيكا الروماني حتي أنهم ليضعون حكمه في أوائل كتبهم ويقدسونها ويقتدون بأقواله ويعولون علي آرائه، ثم تري آيات القرآن بين ظهرا نينا أبدع وأجمل من حكمة وأبهي وأبين وآنق في النفوس وأروح للعقول ولأذكر لك طرقاً من كلامه ثم أتبعه ببصنع آيات من القرآن ثم أكل الأمر لك في حال قوم أضاعوا أجمل نفيس لديهم، وآخرين خاضوا البحار وقطعوا القيافي والقفار وركبوا المهاري واجتالوا الصحاري وأخذوا يستمدون من أيات الحكماء (١)

ومعني هذا أنه يحاول جاهدا بإبراز مافي القرآن الكريم بل والسنة النبوية أيضا من جواهر إلي أن تراثهم الديني وخاصة كتابهم المقدس ماهو أفضل من هذا الذي يعجبون به ويستمر في الكتاب بجزئيه وبموضوعاته المتفرقة أن يثبت ذلك، واللافت للأنظار أن أحد موضوعات هذا الكتاب عن الشطرنج والنرد ، ويحاول الشيخ من خلال الحديث عنها بيان عظمة الإسلام في اختلاف الأمم، وقد ورد هذا الحديث في الفصل الخامس من الباب الأول في الجزء الأول، وبعد أن شرح معني الشطرنـــج وحساب بيوته فـــي

(١) نظام العالم والامم / ط٢ المكتبة التجازية بمصر سنه ١٩٣١جـ٢٧/١

الفصل السادس يأتي يتعقيب علي ذلك في الفصل السابع الذي يخصصه للحديث عن منافعهما وبيان أن الشطرنج والنرد قصد بهما ماهو أرقي من اللعب؛ يقول" اعلم أن النرد وضع موضعا محكما كما وضع الشطرنج فتري صاحب الشطرنج كل أفعاله بفكره، وصاحب النرد تأتي له الأشياء وبالقدر ثم يصرفها علي حسب فكره فيشقي تارة ويسعد أخري، فتأمل أيها الأخ بعقلك في أفعال النوع الإنساني من هند وفرس (١)، ثم قارن مذهبيهما بمذهبي أهل السنة والمعتزلة، ثم أحيطك علم بأن هذين المذهبين بعينهما ساريان الآن في أوربا كما ذكره فتحي بك زغلول في الكتاب الذي ترجمه عن هنري الذي سماه خواطر وسوانح في الإسلام فإنه أبان أن هذين المذهبين قائمان الآن بين علماء أورويا بل عندهم أيضا" المذهب الثالث مذهب الإفراط" وهو مذهب الجبرية فانظر كيف تشابهت الأفكار في النوع الإنساني(٢).

ولابد ان نتأمل حقيقة هذا الأمر لتعرف كيف يربط الشيخ بين الأشياء ربطا ذكيا بالرغم مما يبدو وكأنه اعتساف في التأويل، ولكن باستمرار قراءتنا للنص يمكن أن نصل الي قناعة بما يريد ان يفهمنا إياه فيقول "فيا جهل قوم يلعبون ولايفهمون ويقرءون نتيجة حساب الأيام والشهور والخسوف والكسوف الدالة علي حكم عالية ولايشعرون (أولئك هم الفاسقون)(وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)(٣)

(١) اختص هاتين الأثنين لأن كثيرا من الكتب تنسب اختراع الشطرنج إلي صصه بين داهر الهندي الحكيم الشهير، والفرس اخترعوا النرد (الطاولة) وكان اختراع الهنود للشطرنج للزد علي اختراع الفرس والاثنان بما هو أرقي؛ راجع نظام العالم والأمم/ ٩٠، وقد أشار إلي أنه نقله عن علي مبارك.
(٢) نظام العالم والامم/ط/ ٩٠ (٣) المصدر السابق ص٩١

ثم يشرح لهم أن سبب هذا الاختراع هو" أن الحكيم الهندي صصة اخترع الشطرنج لملك بلاده ليخرج أهل اللعب من عماية الجهل بلطف" (١)، وينتهي الباب الأول من الجزء الأول باثبات ان العلوم الحديثة مصداق للنبوة، أما الباب الثاني فيقسمه إلي مقدمة ومقاصد، وكل الفصول المتفرعة من هذه المقدمة والمقاصد تسير في الاتجاه الذي أوضحناه آنفا: القرآن والعلوم الحديثة ومدي اتفاقهما، وأغلب الظن في هذا الكتاب أنه تلخيص لكثير من مقولاته في تفسيره المعروف" بالجواهر في تفسير القرآن" بما في ذلك الصور والجداول والرسومات العلمية.

ويرجع طنطاوي جوهري جهل الناس بهذه الحقائق والبدائع إلي الطريقة الخاطئة في تربية وجدان النشء، يتعرض لذلك في الجوهرة الرابعة عشرة من " التاج المرصع بجواهر القرآن" والتي خصصها لتربية الوجدان في الإسلام يقول: " لقدترك الشرقيون الطريقة التي أشار إليها القرآن الشريف، واتبعها الإفرنج كما درسته في كتب الغربيين وكلتاهما ناقصة، والطريقة المثلي أن يؤخذ النشء بدرس الأشياء في صغرهم علي شريطة ان يذكروا ربهم عند درسها وفهمها ليكون ذلك داعيا لتربية حيه في القلوب، وخشية في النفوس، فلا تمر قاعدة أو عجيبة أو قانون طبيعي، أو نظرة فلكية، ألا يقرن بجلالة من سنها، ويذكر من رسمها، فيشب الفتي دارسا للعلوم، محبا لمبدع الكائنات كما طلب نبينا صلي الله عليه وسلم فقال كل شئ لايبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر أو أجذم او أقطع" ولامعني لذلك إلا تذكر أن المخلوق الذي أزاوله او آكله أو أدرسه أو أفكر فيه إنما هو أثر من آثار جلاله مذكر لنعمائه(٢).

---

(١) السابق ص٩٢

(٢) التاج المرصع بجواهر القرآن /ط٢ المكتبة التجارية بمصر/٣٣ /٣٢*

هذه هي الطريقة المثلي لتربية وجدان النشء من وجهة نظره، وهو يريد أن يمزج بين تعويدهم علي الفهم والاختراع والابتكار مع تأكيد اعتقادهم في الله خالق هذه الكائنات والأشياء ومبدعها، وبذلك يجمع بين الحسنيين فلا يقف عند واحدة منهما وهذا ما أشار إليه بقوله" وكلتاهما ناقصة" فهو لايقصد ان طريقة القرآن ناقصة بل طريقة الشرقيين التي تكتفي بتلقين النشء آيات القرآن الكريم وتحفيظهم إياها دون وعي أوفهم، وطريقة الغربيين التي تنمي في الأطفال حب الابتكار دون إرجاع ذلك إلي سببه ولحقيقي وهو الله، فالأولي من شأنها الجمود والتقليد، والثانية من شأنها ان تبعد الطفل عن ربه لأنها تربطه بالماديات التي يشعر أنه مالكها وقادر علي التصرف فيها فيخرج من إطار الاعتقاد، ويثق في المادة الملموسة أمامه، وفي عقله، والقدره علي التحكم فيها. وكل ذلك مخالف لناموس الحياة، الذي يرجع كل شئ إلي خالقه فالمادة والعقل راجعان إلي العقل العام الذي يستمد علمه من الله عز وجل،

وقد حاول أن يبين ذلك في كتابه" أين الإنسان" في الفصل الثامن منه الذي وضعه تحت تساؤل "أين الحكمة في المادة والعقل؟" يقول:" فقلت ماالحكمة في فوائد المادة إذا لم نعقلها؟ وما الفائدة في عجائب العقول البشرية إذا جهلوها؟ فقال : إن هذه المادة كلوح منقوش سطوراً: فالحيوان يقرأ جزءاً وأنتم تقرءون سطراً، وسائر السطور يقرؤها قوم آخرون في عالم آخر؛ آما عقول النوع البشري فأنها مستمدة من العقل العام المحيط بالعالم الفائض من علم الله عز وجل، وهذا العقل يحيط علماً بالمادة وعجائبها، والعقول البشرية تطلع قليلا قليلا علي ماأودعه من الحكم، ولئن ذبل نبات

أومات حيوان بلا فائدة ترونها، إنّ هناك فوائد تجهلونها ومتي تحلل الي عناصره، وكرّر راجعا الي مادته لم يعدم خواصه، وإنما هي كامنة، فلا معدوم في هذا الوجود (١).

وهكذا نستطيع أن نفهم فكر الشيخ الذي يجمع أخلاطاً من المعارف الشرقيةوالغربية؛ المعارف الشرقية المتمثلة في الفلسفة الإسلامية والتصوف، والمعارف الغربية المتمثلة في مذاهب فلسفية شتي، يريد أن يجدد الفكر الديني القائم في ذلك الوقت بهذه الصورة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة لينطلق بعده الفكر الإسلامي إلي آفاق أكثر تصورا تقود المسلمين إلي وضعهم الأفضل في قيادة العالم، وهم جديرون بذلك، في حالة ما إذا فهموا كتاب الله العزيز الذي بين ايديهم حق الفهم واستوعبوه حق الاستيعاب ليكون مناراً لهم يهديهم إلي الطريق الصحيح ويحررهم مما هم فيه من عبودية واستعمار نتج عن استغراقهم في التقليد والاتباع دهوراً طويلة.

(٤)

من خلال ماسبق نسطيع أن نقول إن طنطاوي جوهري واكب حركة عصره الراميةإلي الإصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وقد كان لحركة الإصلاح الديني التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أثر واضح في هذه النهضة الفكرية الشاملة، وقد انعكست آثار هذه الحركة الإصلاحية علي الشيخ فسار في ركبها. بل صار أحد أبرز أعضائها، وتشهد علي هذا أثاره الفكرية التي خلفها وراءه سواء كانت كتبا أو مقالات، وقد استعرضنا بعض أمثلة من كتبه توضح فكره في هذه الناحية،

(١) أين الإنسان ط٣ دار النهضة العربية سنه١٩٧٨/هـ

فاذا نظرنا إلي مقالاته وجدناه يسير في هذا الخط لايجيد عنه، وقد ساعدتنا هذه المقالات التي أوردها عبد العزيز جادو في كتابه عن الشيخ، وخاصة ذلك الجزء الوثائقي الذي أورد فيه كثيرا من المقالات المنشوره في الدوريات السيارة في ذلك الوقت، ونصوصا من كتبه، بل والمراسلات التي كانت بينه وبين العلماء في الدول الإسلامية خاصة تلك الرسالة المعنونة ب " الرسالة الكيالية الطاهرية نسبة إلي الأستاذ الشيخ طاهر ملا الكيالي من علماء سوريا، وهي رسالة لم تنشر من قبل(١).

ففي مقالة له بعنوان أمراضنا الاجتماعية نشرت في العددين ٦٤. ٦٥ من النشرة لاقتصادية المصرية والصادرين في أبريل سنه١٩٢٢ يقول:" إنّ الأمم اليوم قد تنبهت من غفلتها، وقامت من سباتها، والعلم يعدو وحثيثا بالأمم الي العلا والإنسان اليوم غيره بالأمس، هذه حركة فكرية عامة للتطور العام الاجتماعي الإنساني، ومصر التي شهد لها التاريخ بالتقدم علي سائر الأمم أجدر أن تدلي دلوها في الدلاء وأن تبحث مع ذوي الآراء في الأمور الهامة والمسائل العامة، وتحذوحذو الأمم الرافعة للعلم حتي لايسلقنا خلقنا بألسنة حداد، ويقول ابناؤنا: لقد قصراً باؤنا الأولون، ونام علماونا السابقون، فوجب علينا ان ننقي مجتمعنا من بعض المضار والمصائب التي من اهمها مسألة الخمر (٢).فهو يشعر هنا بمسؤلية ليست تجاه أبناء جيله وعصره فقط بل الخلف، أي الأجيال اللاحقة، وهذه المسئولية تنبع من كونه مصريا ينتمي إلي بلد ذات دور حضاري سواء علـي المستوي

---

(١)انظر /عبد العزيز جادو/الشيخ طنطاوي جوهري/١٨٤

(٢) نقلا عن المصدر السابق/١٢٣

الحضاري العام أو علي المستوي الإسلامي الخاص، وتنبع أيضا من إحساس بدور العالم الذي يجب أن يكرس جهده من أجل تنقية مجتمعة مما يصببه من أمراض اجتماعية، والوسيلة الوحيدة في نظره لنجاح هذا الدور الذي ينشده تتمثل في العلم الذي هو وسيلة رفعة الأمم إلي العلا، ولابد من مسايرة حركة التطور العالم الاجتماعي والإنساني التي أصبحت حتمية تاريخية وواقعا يملأ الدنيا. ويستعرض في هذه المقالة أضرار الخمر منطلقا من الحكم القرآني بتحريمها، ويشرح كيف توافق ذلك مع ماتوصلت إليه المدنية الحديثة من نتائج علمية توكد مضار الخمر وأثرها السئ في الإنسان من خلال طرح ماقاله علماء الاجتماع وعلماء التشريح، وأعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر وما جاء في كتب الطب الأفرنجية، ويناشد من خلال هذا المقال أطباء مصر أن يتبنوا هذه الأفكار، ويوضحوا للناس مضاره، ويمنعوا التدواي به كما قام بذلك علماء أمريكا في ذلك الوقت، ويقرن بين ماقاله الدكتور سميث الإنجليري في ضرورة منع التداوي بالخمر وبين حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم" إنه ليس بدواء ولكنه داء" وهذا هو منهجه في المقال، بوضح ماقاله العلماء وماسبق إليه القرآن والسنة.

وفي مقالة ثانية بعنوان"الفلسفة عن العرب" ألقاها بدار نقابة المعلمين سنه ١٩٢٢م، ونشرت في النشرة الاقتصادية في مايو سنة ١٩٢٣م،يلفت النظر إلي أن علماء الغرب يدرسون ماقدمه علماؤنا الأقدمون في مجال الفلسفة، ويبيّن آنه لايقصد من ذلك إلي مجرد الإشادة بمجد الآباء وضرورة الالتفات إلي ماقدموه والوقوف عنده، بل يريد أن يبيّن الحقيقة يقول "ولست أقصد أن العلوم العصرية كلها من القديمة، ولا أن أذم الحديث، بل أنابه

مغرم، ولا أن أتعصب لمجد الآباء كلا، وإنما أريد تبيان الحقائق وإظهار بعض ماكمن من آرائهم في كتبهم، وأبين ما عثرت عليه في المخترعات العصرية الثابتة عن قدمائنا كما اوضحه العلامة سيديو الفرنسي الذي قال إن أكثر الكشف الحديث مأخوذ من كتب أسلافنا (١).

ويستمر بعد ذلك في تعريف الفلسفة وأقسامها، وماقدمه فلاسفتنا المسلمون في الماضي ويتبع حديثه عن هذه الأقسام بضرب أمثلة من الأشياء التي يعزو الناس اختراعها إلي مخترعين غربيين، ويبين سبق قدماء العرب والمصريين إلي هذا مثل رقاص الساعة ودوران الأرض، والجاذبية، ويؤكد مرة ثانية أنه لايصدر عن تعصب ولاانبهار بعلمائنا القدماء وإنما إحقاقا للحق، وأن كثيرين من علماء الغرب ردوا هذا الحق لآصحابه واعترفوا بفضلهم علي الحضارة الغربية التي تناسي كثير من أهلها هذا وأخذوا في عداوة الشرق .

ويطرح هذا الجزء الأخير في مقالة منفصلة بعنوان"من الشرق والغرب" نشر في مجلة المعرفة (الجزء الرابع الصادر في الأول من أغسطس سنه١٩٣١" يقول بعد ان عدد امم الغرب" ولكن لما دخلوا المسيحية لم يعلموا ماعلمه المسيح من السلام العام؛ إذ أفقوا في الشرق وازداد ظلم الرومان للشرقيين فمم كان هذا؟ ظهر نبي عربي في صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح: أفشوا السلام، وأديموا الصيام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا جنة ربكم بسلام، ودعاكم إلي الإسلام والسلام العام، واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة؛ لأن المسيح قبله لم يخضد شوكتهم،

---

(١) نقلا عن المرجع السابق/ ١٣٠

ولم يعملوا بنصائحه في السلام ليتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لهم معلمون(٢) فالشيخ وهو ينعي علي الغرب نظرتهم العدوانية يطرح رؤيته للاتفاق بين الدينين المسيحية والإسلام - وأن مبادئهما تتفق مع بعضها من حيث الدعوة إلي السلام علي الأرض، وتوافق العبادات ثم يدافع عن مقولة انتشار الإسلام بحد السيف وهي التي اتخذوها ذريعة لهم للعدوان علي الشرق، ويذكرهم بفضل الشرق عليهم في أنهم أساتذة الغرب ومعلمون لهم .

ويصدر كتاب الشيخ علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" ويثير ضجة كبيرة في الأوساط الدينية والفكرية، ويحدث جدلا كبيرا في هذه الأوساط، وكان من الطبيعي أن يدلي الرجل وهو أحد رواد الإصلاح، بدلوه في هذا الموضوع فكتب مقالة يستعرض فيها فكرة الخلافة الإسلامية، ونشرت في مجلة المعرفة في عددها التاسع الصادر في يناير سنة ١٩٣٣م وفي نهايته بطرح صورة الخلافة كما يراها تقوم علي عدة أسس:

أولا: أنه يجب علي كل أمة - عربية أو غير عربية - أن تمنح التعليم للذكور والإناث بقدر الإمكان .

ثانيا: يجتمع أمراء الإسلام المفوضون من أممهم في أمر الخلافة؛ لينتخبوا أميرا منهم لها، علي شريطة الا يبرم أمراً إلا بمشورتهم من صلح أو حرب او غيرهما كما يفعل الخلفاء.

---

(٢) نقلا عن المرجع السابق/١٤٧

ثالثا: أن يكون الانتخاب لسنين محدودة أو لمدة الحياة، فإذا انقضت المدة في الحال الأولي أومات في الأخري، فلينتخبوا سواه بالشوري، فإذا أعيد انتخابه في الحالة الأولي قلد ذلك.

رابعا: يجب أن يراعي في الخليفة أمران مهمان وهما:

١- أن يكون جيشه اقوي جيوش الأمراء.

٢- أن يكون أهل مملكته أعم من سائر الأمصار، ولايكون للنسب فضل إلا في الترجيح إذا تعارض أميران واستوفيا ماذكرناه، ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالي. (وزاده بسطة في العلم والجسم).

خامساً: كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لا حق له في تولي أمر الخلافة، لأن رأيه تابع لرأي من فوقه، وهذا ضار بالمسلمين .

سادسا: إذا تعذر الاجتماع في هذا الزمان - لضعف أو افتراق كلمة. فليتربص المسلمون الوقت المناسب. فأما الخلافة الضعيفة التي يتولاها من لايحوز هذه الثقة فما هي إلا شبكة صائدين، وحيلة محتالين؛ فهل المسلمون عقاريتناوله الأبناء عن الآباء؟ إنهم خير أمة أخرجت للناس، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالأولي. لخلفائهم مصطفين، ولهم مشيرين، وعلي أعمالهم شاهدين، ولاعوجاجهم مقومين"(١).

وباستقراء هذه الأسس والأفكار نجده يطرح رأيا عبارة عن مزيج من الفكر الإسلامي خاصة في صوره الأولي - عهد الخلافة الرشيدة - وكذلك الفكر الغربي، فالشوري والانتخابهما الأساس الذي قامت عليه الخلافة

(١) نقلا عن المرجع السابق/١٥٦-١٥٧

الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين. وهو النظام المعمول به في بلاد المغرب كما أن رفضه لفكرة ان يكون للنسب دور في اختيار الخلفاء إلا في حالة الترجيح نابع من هذا التاريخ وكذلك رفضه ضعف الأمير وتبعيته لدولة أجنبية، لأن ذلك يؤثر علي مصالح الأمة بالسلب. ولعلنا نلاحظ أيضا الأساس الأول لنري الخط الفكري الذي سار عليه في كل أفكاره وهو مهم جدا ، إذ يري ضرورة تعليم الذكور والإناث، ويمكن اعتبار ذلك إشارة منه إلي أن الأفكار والأسس التالية التي دعا إليها لايمكن أن تتحقق إلا بتحقق هذا الشرط الأول فالأمة المتعلمة قادرة علي الاختيار الصحيح، والتعليم من شأنه أن يرفع من وعي الأمة بحقوقها وواجباتها ، ومن شأنه أيضا أن يخرج أناساً قادرين علي القيادة الصحيحة إذا ما وقع عليهم الاختيار لقيادة الأمة، إذن لاصلاح للامة في كل أحوالها إلا بالعلم.

ولعلنا نلحظ أيضا أن النص يشير إلي فكرة الحرية والاستقلال التي سيطرت علي فكر جميع زعماء الإصلاح سواء علي المستوي السياسي أو علي المستوي الفكري، وبالتالي الديني باعتباره جزءاً من الحركة الفكرية العامة، والتي تركت أثراً كبيرا في فكر المفسرين في ذلك العصر وقد تعرض لها عفت الشرقاوي في كتابه أسلوب "الفكر الديني في مواجهة العصر" بالتفصيل، وبين أنها كونت مع فكرة الإصلاح ثنائيا فاعلا في جهود المفسرين في العصر الحديث[1].

---

(١)لمزيد من التفصيل في هذه المسألة راجع عفت الشرقاوي / الفكر الديني في مواجهة العصرط٢ القاهرة سنة١٩٧١ ط١ دار التراث سنه ٢٩٨٢ ص ٧٠٢ وراجع عبد العزيز جادو/الشيخ طنطاوي جوهري/٤٩

ويبرز أكبر أثر لها في أسلوب المفسرين وتنوع اتجاهاتهم في التفسير حيث يسلك كل مفسر سلكاً مستقلا عن الآخر، ويحاول قدر الإمكان إبراز دوره وشخصيته في تفسيره، مقلا من الاعتماد علي تفسيرات القدماء أو علي الأقل عدم الإشارة إلي الذين نقل عنهم، فنجد المفسر يتصدي مباشرة للنص بأسلوبه، وهذا لايعني أنه لم يرجع الي تفسير القدماء، لان أن مفسر لاينطلق من فراغ، ولكنه نوع من تأكيد الشخصية وإضفاء روح العصر، ونظن أن هذا المبدأ ترك أثرا كبيراً في فكر الشيخ طنطاوي جوهري، فدعا إليها كثيرا في كتبه ومقالاته، بل كانت أساساً بني عليها بعض كتبه التي أشرنا إلي أهمها آنفا، وربما كان إلحاحه المستمر عليها ناتجا عن إيمانه بأنها تعد أهم واخطر عنصر في قضية الإصلاح الفكري والديني ومن ثم الاجتماعي، فيدونها لن يتسني لقادة الإصلاح أداء دورهم، وبدونها لن يتمكن الناس من استيعاب هذا الفكر الإصلاحي والعمل علي تنميته حتي يؤدي دوره المنشود.

واذا قيل إن جماعة الاصلاح الديني اعتمدت علي العلم أيضا ومن يقرأ آثار الامام محمد عبده يجد ذلك واضحاً، فإن اشاراتهم العلمية لم تكن بهذه الصورة الواسعة التي اعتمد عليها طنطاوي جوهري والتي تجلت بوضوح في تفسيره الجواهر.

ويخلص مما سبق الي ان فكرة الاصلاح بكل توابعها من حرية واستقلال ونهضة فكرية واجتماعية كانت تسيطر علي فكر الشيخ، ومن ثم برزت في كل إنتاجه الفكري، صحيح أنه سار في ذلك علي ماسار عليه زعماء هذه المدرسة الذين واكب عصرهم كما أشرنا، وقد كانت السمة البارزة للخطاب

الديني في ذلك الوقت، ولكنه نحي بها منحا علميا بسبب استغراقه في المسائل العلمية (١).

(٥)

بقي أن نشير إلي عنصر آخر مهم في فكر الشيخ لعب دوراً مهما بجانب العناصر التي تحدثنا عنها، وهذا العنصر هو الخيال، لقد تميز طنطاوي جوهري بخيال خصب، ولعل الشيخ مصطفي الحديدي الطير كان علي حق فيما قاله عنه في كتابه "اتجاه التفسير في العصر الحديث" حيث يقول: "وعلي الرغم من أن الشيخ رحمه الله كان رجلا تقيا علي ماعرفته فيه، وجربته منه، فانه كان ذا خيال حصيب، وكان لهذا يخضع القرآن لما يتخيله في معانيه، بأفكاره العريضة ذات الآفاق البعيدة" (٢).

ويلمح . جوميبه في كتابه "الشيخ طنطاوي وتفسيره الجواهر" حين يتحدث عن مصادره في تفسيره ويبين أن من "بينها نصوص لأخوان الصفا وقصص علي نمط كليلة ودمنة وقد يورد شيئا من "ألف ليلة وليلة" بل هو لم ينس السندباد البحري(٣) ولعله يشير إلي مكونات خياله الذي كان له أثر واضح في تفسيره هذا بالإضافة إلي أن الشيخ كان شاعرا وقد نشرت له قصائد ومقطوعات شعرية، وقدأشار إلي ذلك الشاعر السكندري عبد العليم القياني في كتابه " رواد الشعر السكندري، في العصر الحديث" بقوله" وكان

---

(١) راجع محمد إبراهيم الشريف، اتجاهات التجديد في التفسير المصري ط١ دار التراث سنة ١٩٨٢ ص٧٠٢ وراجع عبد العزيز جادو/الشيخ طنطاوي جوهري ص٩

(٢) راجع مصطفي الحديدي الطير / اتجاه التفسير في العصر الحديث ط المجلس الاعلي للشئون الاسلامية سنه ١٩٧٥/٧٥.

(٣) نقلا عن الفكر الديني في مواجهة العصر/٧٣.

العالم الفاضل الشيخ طنطاوي جوهري - في هذه الفترة - يعمل مدرساً بمدرسة راس التين الثانوية. وكان الشيخ يلقن تلاميذه بعض "الأفكار الثورية في قصائد من نظمه، ويورد مقطوعة كان قد نشرها بمجلة "جمعية الملاجئ العباسية" وفيها يوضح بطريق الإشارة بعض مثالب الملوك (١).

ولايخفي علي أحد أن الخيال من المقومات الأساسية لفن الشعر ولوتأملنا إنتاج الشيخ طنطاوي الفكري لوجدنا الخيال يلعب دوراً أساسيا ومن يقرأ كتبه يجد هذا واضحاً في اختياره لبعض عناوين كتبه مثل نظام العالم والامم "وجمال العالم" وسوانح الجواهر" وميزان الجواهر في عجائب هذا الكون الباهر" وغيرها والموضوعات التي طرقها في هذه الكتب حيث مكنه خياله من أن يلتقط كثيرا من المعارف والمعلومات عن عوالم متعددة، واستطاع أن يربط بينها، وليس بالضرورة أن يكون الخيال مجنحاً او مبدعاً أدبا أو قصصاً أو أساطير بل إن دور الخيال أكبر في التنسيق وإعادة صياغة الصور المتناثرة لنظمها في إطار واحد يؤدي في النهاية معني أو صورة جديدة، وقد نجح الشيخ في التقاط نماذج متناثرة من العوالم المختلفة وربطها في إطار واحد يوحي بعظمة الخالق وعظيم تدبيره في الكون، ولعل ذلك ماجعل دار المعارف تقول في كتابها الذهبي في مدح كتابه"أين الإنسان" حين نشرته عام ١٩٣١م وقد طار في كتابه هذا علي أجنحة الخيال إلي الكواكب السيارة، فخاطب سكانها وبحث في أحوالها،

---

(١) نقلا عن عبد العزيز جادو/ الشيخ طنطاوي جوهري/١٠٣،١٠٤

وقارنها بأحوال الأرض الشقية، كان ذلك بأسلوب من أبدع الأساليب وأقربها للأفهام(١) وهكذا يلتقط المعلق خيطاً ذكيا يوحي بفهم للكتاب ويوعي بأسلوب الكاتب ومنهجه.

وإذا نظرنا إلي خواطره في "سوانح الجواهر" لتأكدنا من هذا الخيال الذكي الواعي الذي ربط بين كثير من الموضوعات الناتجة من مشاهداته اليومية، ويربط ذلك بإشارات إلي الآيات القرآنية التي تدعو إلي التفكير في هذه الأمور وبطبيعة الحال يختتم خواطره بنعي علي من يقفون عند ظاهر النصوص، ولايتأملون مافيها من إشارات تدعو إلي التأمل والإبداع، وبدعوة إلي نفض غبار الماضي بما يحمله من جهل وغفوة ويدعو إلي التقدم،

وربما كان هذا الخيال الخصيب هو الذي قاده إلي الدخول في عالم الروحانيات، ويظهر له باع طويل فيه كان من نتاجه كتاب"الأرواح" ، بل كان له دور في تفكيره نفسه كما أشار هو إلي ذلك مراراً وإن كان يشير إليها بلفظة الإلهام كما يقول في ختام كتابه"القرآن والعلوم العصرية" ولقد أصبحت موقنا إيقانا تاماً بطريق الإلهام وما أعرفه من أحوال المسلمين أن هذه الحركة العلمية ستجعل المسلمين جاملين رايات الفتح العلمي في مستقبل الزمان، وبهم يرتقي نوع الإنسان ويكونون نوراً وهدي للعالمين وأنا أقول الآن مصرحاً بعض التصريح أني لم أقل هذا من تلقاء نفسى، ولكني ألهمته، وأيقنت به إيقاناً(٢).

---

(١) نقلا عن عبد العزيز جادو/ الشيخ طنطاوي جوهر/٣١

(٢) خاتمة كتاب "القرآن والعلوم العصرية" ط٢ المطبعة التجارية ١٩٢٣م

ومن الطبيعي أن يصل دور الخيال إلي تفسيره الذي يعد جامعاً لكل نتاجه الفكري والعلمي والإلهامي أيضا، فيكون باعثاله علي التحليق في آفاق كثيرة حول آيات القرآن الكريم، وفي ربطه بين هذه الآيات وبين ظواهر الكون وربما كان الخيال سببا في إيراده الصور والخرائط التي يدعم بها أفكاره التي يطرحها في هذا التفسير، ومن ثم جاء علي هذه الصورة من التوسع الكبير الذي أثار حفيظة الناس ضده.

(٦)

تأتي بعد ذلك إلي تفسيره الكبير ومنهجه فيه، فقد جاء تفسيره في ٢٦ مجلدا منها ٢٥ في التفسير، والمجلد السادس والعشرون جاء في صورة استدراكات لما فاته في التفسير وطبيعه الحلبي سنه١٩٤٧هـ. واستقبل بشعورين متناقضين، فبينما استقبله التيار المجدد بقبول وإشادة استقبله التيار المحافظ باستنكار واستهجان، وصل إلي حد المصادرة من المملكة العربية السعودية، مما أثر علي موقفه في مصر، وبالطبع لم يطبع الكتاب في مصر مرة ثانية منذ ذلك الوقت ولكن بعض المكتبات الكبري احتفظت بنسخة منه أصبحت مصدراً ومرجعاً اساسيا للباحثين.

وأول مانلاحظه علي هذا التفسير الكبير أنه جاء شاملا لآيات القرآن الكريم كلة بحسب ترتيب المصحف كما سار علي ذلك كل المفسرين الذين فسروا القرآن كاملامن بدايته إلي نهايته، ولكنه سلك مسلكاً مختلفاً عنهم إذ أخذ بجمع كل مجموعة من آيات السورة ليضعها في إطار واحد تحت عنوان"مقصد" وبهذا يمكن أن تنقسم السورة عنده إلي مجموعة من المقاصد

وإذا كانت سورة قصيرة جعلها مقصداً واحداً، فإذا أمكن تقسيمها إلي مقصدين فعل حسب ماتتضمنه السورة من معان، وكعادة كثير من المفسرين حين يطمحون إلي تحقيق شي جديد لم يسبقهم إليه أحد، كان طموح الشيخ طنطاوي جوهري، وقد جاء متميزا بالفعل عما سبقه لأنه شغل نفسه بكثير من القضايا العلمية فأصبح علامة مميزة دالة علي نضج هذه الظاهرة بالرغم من وجود بعض الظواهر السلبية فيه والرجل كان صادقاً من البداية فقد تحدث في مقدمة الكتاب عن طبع ترسب فيه منذ الصغر وظل ملازما له طوال حياته حتي ظهر واضحاً في هذا الكتاب الذي يقدمه بقوله" فإني خلقت مغرماً بالعجائب الكونية، معجبا بالبدائع الطبيعية، مشوقا الي مافي السماء من جمال، ومافي الأرض من بهاء وكمال، آيات بينات وغرائب باهرات، ثم إني لما تاملت الأمة الاسلامية وتعاليمها الدينية ألفيت أكثر العقلاء، وبعض جلة العلماء عن تلك المعاني معرضين وعن التفرج بها ساهين لاهين، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم وما أودعت من الغرائب فأخذت اؤلف كتبا لذلك شتي كنظام العالم والآمم، وجواهر العلوم، والتاج المرصع وجمال العالم، والنظام والإسلام، ونهضة الأمة وحياتها، وغير ذلك من الرسائل والكتب، ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية وجعلت آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع، وحكم الخلق(١)

هكذا يبين أن حبه لمسألة الكونيات وانشغاله بها لم يأت من فراغ، أو لم يأت نتيجة لقراءاته المتعددة فقط، ولكنه طبع ولد فيه وترعرع مع الأيام ومن الطبيعي أن تزيده خبراته المعرفية وتنميه وتصقله ليصبح نتاجا فكريا

(١) مقدمة تفسير الجواهر /ط/٢

في كتبه التي أشار إليها، والتي يبين أنها- رغم كثرتها- لم تشف غليله ولم تشبعه، من هنا دعا الله أن يفتح عليه باب العلم أكثر وأن يوفقه لكتابة تفسير كامل للقرآن شاملا كل مايصبو إليه فاستجاب له وكان هذا التفسير، ويوضح مسلكه سواء في كتبه إو في تفسيره بقوله" ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية وجعلت آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع وحكم الخلق فقد ركز علي أن يبرز مافي الآيات القرآنية من إشارات كونية دالة علي قدرة الله سبحانه وتعالي، ولكن هذا المزج جاء منه، وبمجهود تأويلي كبير حيث يشير لفظ " وجعلت" إلي هذا المجهود الذي دفعه أحيانا إلي المعاناة في تأويل الآيات القرآنية لأنه يعني أنه هو الذي جعل آيات الوحي تطابق عجائب صنع الله في الكون ويبين غرضه من التفسير وهو كما يقول" أن يشرح الله به قلوباً، ويهدي به أمماً وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكنونية (١) أي أنه يأمل أن يقود هذا التفسير إلي نهضة الامة علميا، وفي اطار من الدين الإسلامي فيصبحوا قادة العالم كما أوضح ذلك في كتبه الكثيرة، وألح علبه إلحاحاً شديداً في هذا التفسير، فكان يعقب علي كثير من المباحث العلمية التي يوردها بعد التفسير اللفظي لمجموعة الآيات التي يفسرها بهذه الأمنيات وهذه التعليقات وهي كثيرة - مثلما يقول في أثناء عرضه لدائرة الوجود في تعقيبه علي أول الآيات في سورة النحل" أيها المسلمون، حرام عليكم فوالله ماكنت لأعلم قبل هذا اليوم أن هذه الأعاجيب في القرآن أي أن تكون الدائرة في سورة من أدني إلي أعلي ثم في التي بعدها تكون من أعلي إلي أدني،

(١) المصدر السابق ط/٣

وهذه صورتها ، ويرسم صورتها وبعد تحليل الصورتين من أدني إلي أعلي ومن أعلي إلي أدني ينعي علي المسلمين والعلماء السابقين انشغالهم ببلاغة القرآن اللفظية واهتمامهم بأحكامه الفقهية ويتركهم هذا ، ثم يعقب قائلا" ياسبحان الله، أيكون النظر في فعل الله كفرا ؟ أفيكون هذا النظام الجميل الذي هو عين الترتيب الذي رتبه العلماء كفرا فلا تقول إن هذا هو جمال الله وهذه هي معرفة الله وبها حبّ الله، وبها السيادة في الأرض والتسلط علي أهلها ، ومن قرؤا هذه العلوم أحبهم لأنهم درسوا ماعمل، وإذن يسلمهم قيادة الأمم علي شرط أن يريدوا الخير لها"(١)

وهكذا نجده في مواضع كثيرة من التفسير"يهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلي علوم الكون ويحثهم علي العمل بما فيها ، ويندد بمن يغفل هذه الآيات علي كثرتها ، وينعي علي من أغفلها من السابقين الأولين"(٢) ولايكتفي بهذا فقط كما توقف عنده الذهبي بل يطمح إلي أن يقود هذا العلم إلي قيادة المسلمين للعالم وسيطرتهم علي الأرض وتسلطهم علي أهلها بشرط أن يستخدموا ماعلموا في الخير ليتوافق فعلهم مع هدف القرآن وهو الخير للإنسانية كلها ، والسبب في هذا الإلحاح المستمر من جانبه علي تدبّر معاني الآيات الكونية أنه نظر فوجد أن نسبة الآيات الكونية تقرب أن تكون خمسة أضعاف آيات الأحكام ، فهي لاتصل مائة وخمسين (١٥٠) آية ، بينما آيات الإعجاز الكوني تصل إلي سبعمائة (٧٠٠) آية أو يزيد إلي خمسين وسبعمائة (٧٥٠) كما ذكر في تفسيره ومن ثم كان نداؤه" ياأمة الإسلام آيات معدودات في الفرائض

---

(١) انظر لمزيد من التفضل / الجواهر ص٨/٧٨، ٧٩

(٢)المصدر السابق والصفحة نفسها.

اجتذبت فرعاً من علوم الرياضيات فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام ،هذا زمان رقيه، ياليت شعري، لماذا لاتعمل في آيات العلوم الكونية مافعله آباؤنا في آيات الميراث (١)، ثم يتساءل في موضوع آخر؛ فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة ويجهلون علما آياته كثيرة جداً(٢)، ويمضي أبعد من ذلك فيصدر فتوي تكاد تكون مغايرة تماماً لأحكام الفقهاء قبله، فيقول" ولكني اقول:الحمد لله..الحمد لله انك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض؛ لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين علي كل قادر .. إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب وظهور الحقائق ، والله يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم"(٣).

وهذا الحكم هو عكس ماذهب اليه كثير من الفقهاء أن علوم الدين فرض عين يجب علي كل مسلم الإلمام بها والسؤال عنها أيضا يعد علماً بها، يراها هو فرض كفاية، وعلوم الدنيا التي أقر كثير من الفقهاء أنها فرض كفاية يراها هو فرض عين وضرورية للازدياد في معرفة " الله التـــــي

(١)راجع محمد حسين الذهبي/ التفسير والمفسرون

(٢) تفسير الجواهر ص١٩/٢

(٣) المصدر السابق والصفحة نفسها

لاتتم إلا بعد دراسة هذه العلوم، ويفصل القول في هذه المسألة تفصيلا كبيراً عند تعرضه لتفسير قوله تعالي (فلينظر الإنسان إلي طعامه) (١) يقول: "لاجرم أن نظر الانسان إلي طعامه لايتم إلا بدراسة الكيمياء وعلوم النبات ومعرفة أنواعه، وكلما ازداد الإنسان علما بالحكم النباتية ازداد غراماً بربه وأدرك حكمته وجماله، ولايزال في ازدياد للحب والقرب من ربه كلما ازداد غوصا في عجائب العلم وفروعه وأصوله... أفلست تري بعد الذي تقدم أن يكون قوله تعالي (فلينظر الإنسان) موجها إلينا لمعرفته تعالي خاصة لأنه أراد أن ننظر النظر الأعلي الذي لايتم ولايكون إلامع النظر الأدني" (٢).

هكذا كان الهدف من تأليفه الكتاب علي هذا النحو، إذ جعل النظر الأدني الذي هو تأمل في عجائب الكون طريقا للوصول إلي معرفة الله تعالي وهو مشبع بروح صوفية سبقه إليها الغزالي وكذلك الرازي ولكنه ركز عليها وربطها بعلوم عصره وتتضح بجلاء في تفسيره للآيات.

(٧)

وكما سبق أن ذكرت فان منهج الشيخ يسير وفق خطة التزمها في الكتاب كله لم يحد عنها مرة واحدة، وهي أنه يقسم السورة إلي مقاصد، يذكرها في مقدمة الباب الذي يتناول فيه السورة، ويضع في كل مقصد مجموعة من الآيات تندرج تحت موضوع واحد سواء كان حكما شرعيا أو دلالة كونية، وبعد ذكر هذه الآيات يذكر التفسير اللفظي لها،

---

(٢) عبس /٢٤ (٣) تفسير الجواهرص ٢٥/٥٣-٥٤

ويستخدم فيه الوسائل التفسيرية التقليدية، فيذكر المعاني وما تشير إليه الآيات مستعينا في ذلك بالمعاجم اللغوية والآثار المروية عن الصحابة والتابعين، وأحيانا يستند إلي الشعر لبيان المعاني، ويشير إلي القراءات أحيانا، كما يذكر أسباب النزول، ثم بعد ذلك ينتقل إلي الإشارات الكونية إن وجدت ولنضرب أمثلة علي ذلك، فعند تعرضه لتفسير قوله تعالي(ليس البرأن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . إلي قوله تعالي .. وأولئك هم المتقون)(١) يقول" البر كل فعل مرض وهو اسم جامع لجميع الطاعات وأعمال الخير المقربة إلي الله الموجبة للثواب؛ والمراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة وقوله : آتي المال علي حبه أي علي حب المال جاء رجل إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال؛ يارسول الله أي الصدقة أعظم أجراً قال أن تصدق وانت صحيح شجيع تخشي الفقر وتأمل الغني، وقوله (ذوي القربي واليتامي) فأما ذوو القربي فإيتاؤهم أفضل؛ أعني المحاويج منهم، قال صلي الله عليه وسلم "صدقتك علي المسكين صدقة وعلي ذوي رحمك اثنتان صدقة وصلة" وأما اليتامي فجمع يتيم وهو الذي لا أب له مع الصغر، أي وآتي الفقراء من اليتامي، والمساكين جمع مسكين وهو الذي اسكنته الحاجة لأنه دائم السكون إلي الناس، وابن السبيل هو المسافر، بسمي بذلك لملازمته الطريق، والسائلين هم الطالبون المستطعمون، وفي الرقاب يعني المكاتبين، وكذلك أن يفك الإنسان الرقاب العنق وفداء الأسري، وقوله وآتي الزكاة أي المفروضة، وما تقدم كان في النوافل من الصدقات، والموفون بعهدهم عطف علي من آمن ، والصابرين في البأساء منصوب علي

(١) البقرة /١٧٧

المدح، ولم يعطف لفضل الصبر علي سائر الأعمال كما قدمنا في قوله وبشر الصابرين فراجعه هناك، والبأساء الفقر، والضراء المرض ونحوه، والبأس مجاهدة العدو، أولئك الذين صدقوا في الدين واتباع الحق وطلب البر، وأولئك هم المتقون، لما ذكر الله عز وجل أحوال الكافرين والمنافقين وخبائث اليهود، ورحبس العرب المشركين، وما أحلوا من المحرمات وحرموا مما أحل الله طفق يذكر هيئة البر وتمام الإيمان، وجماع خصال الخير فقال: ليس البر الخ، ورد في اسباب التنزيل أن اليهود كانو يلهجون ببيت المقدس والنصاري بالمشرق، وأن المسلمين أولعوا بالكلام في التوجه للقبلة وأذهلوا عما عداه، فقال الله لهم، ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ماعداه وإن الإنسانية كثيرة الوجوه متنوعة المشارب فلا تقفوا في موقف الذين قصرت أنظارهم، وللإنسان قوة فكرية وصورة جسمية وأخلاق نفسية وأموال مملوكة (١).

ويوضح المثال خاصية من خصائص المنهج، فهو أولا يفسر الألفاظ بمدلولاتها وإن كنا نلاحظ هنا أنه لم يقف علي كل لفظة، بل ترك بعض الألفاظ، كما أنه لم يخرج عن إطار القدماء من إشارة نحوية مثل "والصابرين" منصوب علي المدح، أو الاستعانة ببعض الآثار لبيان مقصود اللفظ خاصة الأحاديث النبوية مثل:" فأما ذوو القربي فإيتاؤهم أفضل أعني المحاويج منهم، قال صلي الله عليه وسلم صدقتك علي المسكين صدقة وعلي ذوي رحمك اثنتان صدقة وصلة"، والاستعانة بذكر أسباب النزول مثلما ذكر ذلك بعد انتهائه من التفسير اللفظي حيث ذكر سببا من أسباب نزول الآية، وكل هذا يوضح اتباعه للمفسرين القدماء في طريقتهم، وهي خاصية يتسم بها

(١) تفسير الجواهر ط/١٤٣

هذا التفسير، خاصة في الجزء الخاص بالتفسير اللفظي للآيات، ولانستطيع أن نحيل إلي اشارات أخري مماثلة لهذا المثال لأنها سمة عامة في تفسيره، فمن يريد أن يتأكد فليرجع إلي التفسير ليعرف صدق المثال. ولكنه لاينسي أن يضيف شيئا من عنده يتمشي مع منهجه الخاص في الإصلاح والدعوة الإنسانية العامة، فهو يعقب علي هذا بقوله؛ إن الإنسانية كثيرة متنوعة المشارب فلا تقفوا في موقف الذين قصرت أنظارهم"وبعد ذلك ينتقد الخلاف بين أهل الأديان قائلا:

" كأنه يقول هذه الأمم من يهود وعرب يختصمون ويختلفون بلا جدوي فهلا نبدوا الشقاق ونهجوا نهج الوفاق، وسارعوا إلي البر بالعلم والعمل والصبر والإحسان، يجب أن يذيع تعليم الصبر بجميع أنواعه أي علي العمل كالجهاد والعلم وعن الحرام وعلي البأساء.والضراء وليكن ذلك في أبواب كأبواب الفقه المشهورة(١)، وهي إضافة تتفق مع ماطرحه من أفكار في كتبه السابقة، ومع دعوته وحبه للعلم، إذ يجعله أحد أقسام البر لأنه خير يسعد به الإنسان.

ونلاحظ أيضا أنه عند تعرضه لآيات الأحكام يكتفي بتفسيرها اللفظي وبيان أحكامها، ولامانع من إشارت إلي بعض الاختلافات الفقهية، وبيان لحكمة التشريع في هذه الأحكام، وأحيانا يتحدث في هذه النقاط قبل عرضه للآيات مثلما فعل مع آيات الصوم فيقدمها بالحديث عن" واجبات الصوم ستة، ولوازم الأفكار أربعة"، و"السنن في الصوم ستة"، و"أسـرار

(١)المصدر السابق والصفحة نفسها

الصوم"، ثم يذكر المقصد الرابع ويعرض فيه آيات الصوم من أول قوله تعالي: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ... إلي قوله تعالي:... .. لعلهم يرشدون" وبعد أن يشرحها شرحاً لفظيا متضمنا إشارة إلي القراءات مثلما يقول: "وقوله لعلهم يرشدون" في قراءة بفتح الشين والأخري بكسرها ففيها ثلاث قراءات" ثم يجد فرصة لإشارة علمية يقول: "إن أجابوني بطاعتي والإيمان بي أجبتهم وأعطيتهم رشدهم في مصالح دنياهم وآخرتهم، انظر الي هيكلك وجسمك ألست تري أن يديك تلمسان بحاسة اللمس المواد الصلبة، وفمك يذوق بحاسة الذوق، وألطف مافي المادة ، وأنفك يشم مايتناثر في الهواء من ذرات الماء، وهي ألطف مما قبلها، وأذنك تسمع أمواج الهواء الآتية من اصطكاك أعضاء الفم، وعينيك تنظران النور الذي يتعالي عن المادة وهو ألطف منها بل هو أصلها، فانظر أليس عقلك وهو أعلي مكاناً من هذه الحواس يتصل بما فوق المادة وهو العالم الالهي الروحاني"(١).

وهو إلي هذه الدرجة لايخرج عن الإطار التقليدي أو المعقول الذي سار فيه الإمام محمد عبده أو غيره من القدماء الذين فسروا القرآن الكريم فهو تعقيب منطقي ليس فيه استرسال وتفصيلات كثيرة، ولكنه سرعان مايسترسل بعد ذلك في حديث عن الحيوانية والروحية في الإنسان ويسرد آراء القدماء من يونان ومصريين وعرب ووثنيين، ولكنه بالرغم من ذلك لايخرج من إطار الآيات التي يتعرض لتفسيرها.

---

(١) المصدر السابق ط/١٤٩ ومابعدها

وعندما يأتي للحديث عن الخمر في إطار الآيات المتوالية في سورة البقرة عن الأحكام لايفسر الآيات تفسيرا لفظيا بل يدخل مباشرة في الحديث عن التدرج في تشريع تحريم الخمر ويبين حكمته بسبب الأضرار التي تسببها للإنسان في بحث يشبه أن يكون بحثا مستقلا مستفيضا شاملا لكل الأقوال الفقهية والعلمية، وقد فصله بالفعل في مقال عبارة عن حديث ألقاه في ندوة ونشر الحديث في "النشرة الاقتصادية" وقد أشرنا اليه من قبل"(١)، وهو منقول بالنص بلا تعديل مما يؤكد أن تفسيره جاء خلاصة لما كتبه في كتبه أو مقالاته السابقة علي التفسير.

ونخلص من ذلك إلي أنه حين تعرض لآيات الأحكام اكتفي بتفسيرها لفظيا وفقهيا أي تفسيرا تقليديا، ولم يخرج منها إلي إشاراته العلمية إلا حين تستدعي الضرورة كما فعل مع الآيات التي ورد فيها تحريم الخمر حيث اقتضت الضرورة إشارة علمية إلي مضار الخمر، وهو أمر ليس جديداً أيضا فقد فعل ذلك من قبله مفسرون آخرون، وإذا نظرنا في تفسير الآيات الأولي من سورة النور(٢) نجده جاء علي نفس الصورة التي جاءت عليها آيات سورة البقرة، من حيث الالتزام بهذه الطريقة مع بعض الإشارات القليلة التي تأتي طبيعية مثل أن يقول "وقدكشف العلماء المحدثون" أو "أظهر الكشف الحديث" وهكذا في عبارات قصيرة فحين يتحدث عن الآية الكريمة (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون) يقول:" بما أفكوا أوبهتوا إذ تظهر آثار الأعمال علي تلك الأعضاء وهو أبلغ من لطف.اللسان

(١) راجع ص من هذا الكتاب وراجع غبد العزيز عبد العزيز جادوا/الشيخ طنطاوي جوهري ص٢٣ ومابعدها.

(٢) الآيات من ١:٢٦

فالمغتابون والقاذفون وأمثالهم نظهر صورة أعمالهم مجسمة براها المذنب ويشاهدها الناس حوله والملائكة بصورة قبيحة بشعة تشعر بالمهانة والذلة، ولامانع من النطق اللفظي وهو معني قوله تعالي ووجدوا ماعملوا حاضرا- وقوله-كفي بنفسك اليوم عليك حسيبا- وذلك حاصل بعد الموت بلاتوان فيظهر الإنسان بمظهره الحقيقي، وهذا قد أظهره الكشف الحديث فإن علماء الأرواح لما استحضروها أخبرت بما يفيد أن أخلاق الإنسان وصوره الباطنة تلازمه ولاتفارقه ويود لويتخلص منه وتستقيم حاله فلا يقدر بل تكون كالهواء يحيط به أينما حل، ويقولون إن جسم الإنسان بعد الموت عبارة عن صورة طبق الأصل أي مطابقة لهذا الجسم المادي ويسمي ذلك الجسم (الجسم الأثيري) أي المنسوب للأثير وهي المادة اللطيفة التي هي أخف وألطف من الهواء، والعالم كله مغمور فيها وهو الصورة تمثل الأخلاق الباطنية للإنسان، ويود لو ينخلع منها إذا كانت قبيحة (١).

وهكذا يحاول أن يدمج معارفه العلمية في إطار تفسير مثل هذه الآيات التي توضح أسباب التحريم أو نتائجه أو التحذير من نتائجه الأخروية كما في المثال السابق الذي ينبه فيه القرآن إلي أن الإنسان لن يستطيع الفكاك من نتائج أعماله، وهو أمر ضروري للالتزام بهذه الأحكام، وقد أراد الشيخ أن يدعم هذا بمعلومة علمية ليزيد الأمر يقينا لدي من يعتقد في العلم وحده، فأشار الي ماوصل إليه العلماء من وجود الجسم الأثيري، والمطابق تماماً لصورة هذا الجسم المادي الدنيوي، ويعود بعد ذلك إلي الحديث عن الأحكام

(١) المصدر السابق ج ١٢/٧

التي تشير إليها الآيات بالرغم من أنه يذكر عدة لطائف وقد عودنا أن تكون هذه اللطائف إشارات علمية، لكنه هنا يجعلها لطائف فقهية مرتبطة بما ورد في الآيات من أحكام خاصة بالقذف والشهادة وغيرها.

فاذا ما وصل إلي آية تشير صراحة إلي إشارة كونية أفاض في الحديث العلمي حتي ليكاد ينسي الحديث عن باقي الآيات في القسم الذي طرحه في البداية ، وقد فعل هذا عندما تعرض لتفسير سورة النحل الذي أخذ القسم الأول منها من أول السورة حتي قوله تعالي :(.. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)(١)، فقد بدأ بالتفسير اللفظي للآيات الخمسين ، وفي أثناء هذا التفسير اللفظي يشير إلي المرجان ويضع صورة له مضمنا حديثه معلومات جغرافية وأرقاماً عن إنتاجه ، وبعد أن ينتهي من التفسير اللفظي يطرح موازنة بلاغية بين آيات هذا القسم وبين مطالع بعض قصائد الجاهليين من حيث شمولية آيات القرآن لمظاهر الجمال في الكون ، وقصر هذه القصائد علي الدمن وآثار الديار وغيرها من مظاهر الصحراء ، وربما كانت هذه الموازنة البلاغية مجرد تمهيد لما يريد أن يطرحه من رؤية علمية ، ويتضح هذا من تعليقه حيث يقول :" وازن هذا المبدأ الذي لا يتعدي بيت أم أو في ، والدمنة التي لا تتكلم والأرض الغليظة ، وبقر الوحش والظباء يتبع بعضها بعضا وهن يرضعن أولادهن . افهمه وتأمل مقاصده وكيف تقاربت أوائل القصائد في تلك المعاني العاكفة علي البيداء وأطلالها والبطحاء وبعرها والبقر وأطلائها لا تجدها تتعدي دائرة ضافت فلم توسع نطاق العقول وعربت عن أكثر جمال الطبيعة فحادوا عن اتساع نطاق المدينة ، وظلوافي البيداء

(١) الآيات من ١ الي ٥٠

متشاكسين ،وانظر أول النحل هنا كما تقدم وما يقاربه من أول سورة الأنعام. " ثم يقول :" لن تقوم أمة إلا بالكلام البليغ المملوء حكمة وصوراً جميلة من المعاني البديعة ، إن نقش صور العجائب السماوية والأرضية وإنارة العقول بفهم الجمال في أكناف العوالم إحياء لها وإخصابا لمزارعها ، وإنماء لما أجنت من الفضيلة والحكمة " (١) .

ويدخل من هذا مباشرة إلي الحديث عما في السورة من العجائب الكونية والحكم والبدائع، والجواهر الفلكية ، ويتحدث عن دائرة الوجود ويستطرد بعد ذلك في ذكر المسائل العلمية المرتبطة بدائرة الوجود وعجائب الكون في مساحة واسعة تصل إلي ٣٨ ثمان وثلاثين صفحة مقسما هذه المعلومات إلي لطائف ، واللطائف إلي فرائد . وهو لا ينسي بين الحين والآخر في نهاية كل لطيفة أو فريدة أن يعقب علي ذلك بربطها بالهدف الذي من أجله وضع تفسيره هذا كأن يقول " والآن ظهر أن الأمم التي سلطها الله من الفرنجة قد طغت وليست خير أمة أخرجت للناس ، فها هو ذا يريد إرجاع المجد للمسلمين ويعلمهم سائر العلوم بطريق دينهم ، وهذا التفسير من الكتب التي أراد الله بها إنقاذ هذا الشعب من جهالته العمياء وضلالته الكنعاء ، ونومته البلهاء ، فيصبح سائدا مرتقبا علي أكثر الناس إن شاء الله "(٢) .

---

(١) تفسير الجواهر /جـ٨/٧٦

(٢) المصدر السابق جـ٨/٧٩ ، وراجع د. محمد ابراهيم الشريف/ مناهج تجديد/صـ٧١٥

ويستمر بعد ذلك في سرد لطائفه المستقاة من الآيات ، وبالرغم من الاستطرادات الكثيرة إلا أنه لم ينس ربطها دائما بالصورة التي ذكرناها في الفقرة السابقة ، وهو يستعين في معلوماته العلمية بكل ما يمكنه الاستعانة به من آراء العلماء؛ قدماء كانوا أو محدثين ، وعرب أو غربيين ، وبالصور التوضيحية مثلما فعل مع المرجان ، والكهرباء ، والسيارات والمنطاد كل ذلك من خلال بيانه لقوله تعالي (ويخلق ما لا تعلمون) ويبين أنها إشارة إلي ما يمكن أن يستحدث مستقبلا من مخترعات علمية من وسائل المواصلات خاصة أن هذا التعقيب جاء بعد الحديث عن وسائل الركوب ، ثم ينتقل إلي الحديث عن البيئات وما فيها من عجائب والفلك وكواكبه ونجومه ، وهكذا ينتقل بين عجائب الكون ومظاهر إبداع الله فيه مما أشار إليه القرآن وبينه في كثير من آيات القرآن الكريم ، ونحن لم نأخذ هنا إلا مثالا واحداً لأننا لو استعرضنا كل الآيات الأخري لما انتهي هذا البحث(١).

(٨)

بقيت عدة ملاحظات أخري حول منهج هذا التفسير منها :

أولا : تأثر الشيخ كثيرا بالغزالي ، وقد نقل منه كثيرا ، بل وأفاد منه فيما لم ينقل ، وليس أدل علي ذلك من استخدامه المتكرر للجواهر في كتبه

(١) انظر علي سبيل المثال لا الحصر الجزء الأول من تفسير الجواهر/١١٦-١٣٤ والجزء الثاني/١٥-٥٦، و١٦٣-١٦٦، و١٨٩-١٩٨ وغيرها كثير من الأمثلة المنتشرة بين صفحات التفسير التي تعبر بوضوح عن شيوع ظاهرة التفسير العلمي وانطباع الكتاب بها حيث ينطلق من الآيات التي تتضمن إشارات كونية إلي الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن مضمنا ذلك حديثا مستفيضا عن النظريات العلمية الحديثة ومدعما قوله بالرسومات والصور.

بل وجعل عنوان تفسيره الجواهر في تفسير القرآن الكريم "، واستخدم الجوهرة ومشتقاتها مثل الياقونة والماسة بدلا من الباب أو الفصل ، أو حتي من المسائل التي استخدمها الرازي ، ولا شك أنه أخذ هذا من الغزالي خاصة كتاب " جواهر القرآن " (١) ، والآمثلة أكثر من أن تحصي علي هذه الملاحظة فليرجع من يشاء إلي التفسير نفسه وسيجد هذا واضحا بل إنه أخـــذ أيضا من الغزالي مسألة القشر واللب (٢) .

ثانيا أخذ الشيخ أيضا من الرازي أسلوبه في تفريع المسائل من تفسير الآيات وإن كان هنا قد استبدل بكلمة المسألة والمبحث اللطيفة والفريدة كما نقل عنه بعض المعلومات التي أوردها خاصة في مسائل النجوم والفلك ، كما تابعه في الإفادة من مقولات المتصوفة ، وإن كان قد قلل بعض الشيئ من رواياته عن مآثر المتصوفة التي أكثر منها الرازي سواء في " مفاتيح الغيب " أو في " أسرار التنزيل وأنوار التأويل " .

ثالثا : تقودنا هذه الملاحظة إلي الحديث عن إفادته من الفكر الصوفي وخاصة في جانبه الفلسفي ، كما فعل في دائرة الوجود عن تفسيره لأول سورة النحل ، وكذلك بعض الحكم التي أوردها مثل قوله في الجزء الثامن تحت عنوان حكمة " إن كل قلب من قلوب بني آدم يقبل صورة الجمال الإلهي كما قبل الماء صورة النجم السماوي فلتتجه القلوب إلي ذلك الجمال

---

(١) راجع الفصل الأول من هذا الكتاب ، وانظر كذلك الذهبي في التفسير والمفسرون جـ٢/ ٤٨٥، وراجع ايضا محمد ابراهيم الشريف في مناهج تجديد /٧١٥ ، وعفت الشرقاوي في الفكر الديني في مواجهة العصر /٧٣ حيث عرض رأي جوميبه في تفسير الجواهر الذي ذكر أنه أفاد من الغزالي (٢) الجواهر في تفسير القرآن جـ٨/١٠٣

كما قابل الماء نجم السماء . إن في كل قلب نوراً إلهيا كما كان في كل ماء نور كوكبي "(١) وربما تتضح الصورة أكثر إذا رجعنا إلي تفسير آية النور في سورة النور (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح).. إلي آخر الآية " إذ يمزج في تفسيره لهذه الآية بين التفسير العلمي والفكر الصوفي مزجاً فريداً ، ويضيف إليها حديثا فلسفيا مستفادا من آراء الفلاسفة القدماء أرسطو وأفلاطون وسقراط والفارابي وابن سينا والرازي وابن رشد "(٢) .

رابعا : وطبقا لذلك نلاحظ أن الشيخ أخذ من كل المذاهب الفكرية ولم يقتصر أخذه علي مذهب دون الأخر بحيث نقول إنه انحاز إلي فكر سني أو شيعي أو اعتزالي أو صوفي ، فقد أفاد من كل ما قرأه في هذه المذاهب الفكرية وأخذ منها بحيث يمكن أن نقول إنه انحاز إلي العلم أياما كان مصدره ، وهذا أمر طبيعي فاذا كان قد أخذ من اليونان والفرس والهنود ومن علومهم ما يدعم أفكاره وهدفه الذي كرس حياته وفكره من أجلها فلا حرج إذن أن يأخذ من جميع المذاهب الإسلامية ، وربما كان ذلك أيضا هدفاً من أهدافه حيث دعا إلي وحدة الأمة الإسلامية ، والتي لن تتحقق بالاختلاف المذهبي ، فلكل واحد حق في أن يأخذ من العلم ما يروق له ولكن بشرط أن ينتهي المسلمون جميعاً إلي وحدة واحدة وهدف واحد ويسيروا في ركب العلم خاصة وأن دستورهم الأساسي يهديهم إلي هذا الطريق حيث ينضح المعارف

(١) الجواهر جـ٩٣/٨ وأنظر كذلك جـ٢ ، ١٥٧ من المصدر نفسه .

(٢) المصدر السابق جـ١٧/١٢ وما بعدها.

العلمية وينصح بالتعلم عن طريق التأمل في ملكوت السماوات والأرض ، وإذا ساروا في هذا الفلك المنير أصبحوا قادة للعالم .

خامسا : يحاول الشيخ دائما الربط بين الآيات التي تشير إلي أهداف متقاربة ، وهو في ذلك ليس محدثا ، ولكنه يسير علي النهج الذي سلكه من قبله المفسرون من البداية حتي عصره .

سادسا : لم ينس أن يأخذ من المأثورات ما يدعم آراءه سواء ما أثر عن النبي صلي الله عليه وسلم من أحاديث نبوية شريفة أو ما أثر عن الصحابة والتابعين حتي الشعر العربي القديم "(١) ومن يقرأ تفسيره يجد كثيرا من المأثورات واردة إمّا في شرح ألفاظ ، أو في تدعيم استنباط علمي ، أو في إطار مقارنة بين بلاغة القرآن والبلاغة البشرية المتمثلة في الشعر العربي وقد أشرنا إلي ذلك .

(٩)

بقيت نقطة أخيرة وهي موقف الدارسين المحدثين من هذا التفسير وقد تراوح مابين مؤيد له ومعارض، والحق أن العمل الكبير هو الذي يشير حوله النقاش دائما، فقد وقف من هذا التفسير موقف الإنكار عدد كبير من الباحثين علي رأسهم الشيخ أمين الخولي في كتابه مناهج تجديد، وفي "التفسير معالم حياته، منهجه اليوم" وذلك في إطار نقده لمسلك

(١) راجع تفسير الجواهر جـ٨/ صـ٧٤ حيث يورد قولا مأثورا عن عمر بن الخطاب وتوصيه ذلك في فهم لفظ أو معني

التفسير العلمي بصفة عامة ومنهج طنطاوي جوهري بصفة خاصة وتابعته في ذلك الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) بحكم تلمذتها له بل كانت أشد قسوة في هجومها وذلك في كتابها "القرآن والتفسير العصري" حيث أشارت إلي "أنه مخدّر للأمة وملهاة لها عن طريق التقدم الحقيقي بما يقدم لها مايطمئنها إلي أنها سبقت عصرها في كل مايتطاول به الغرب من علوم حديثة(١)، كما هاجم التفسير العلمي أيضا الشيخ المراغي والشيخ شلتوت في معرض حديثهما عن التفسير، وتابعهم في ذلك اثنان من الباحثين في التفسير في العصر الحديث وهما: محمد حسين الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون" حيث عقد بحثا عن التفسير العلمي، وطرح آراء المفكرين قديما وحديثا، وقد بين اختياره عقب ذكره لآراء الشاطبي في إنكاره علي الفخر الرازي مسلكه في التفسير العلمي وهو الاختيار الذي انحاز لفكرة الشاطبي ومن هنا نفهم موقفه المعارض للتفسير العلمي (٢) والذي لم يشأ أن يكرره بعد الحديث عن طنطاوي جوهري، وان كان يبدو من حديثه مؤيدا لموقف معارضيه ومؤيداً لمصادرة السعودية لتفسيره.

كما عارضه أيضا مصطفي الحديدي الطير في بحثه الذي ألقاه أمام المؤتمر السادس لمجمع البحوث الإسلامية وطبع بعد ذلك في كتاب بعنوان "اتجاه التفسير في العصر الحديث" وقد خص الشيخ طنطاوي بحديث مستقل، وقد اختتمه ببيان رأيه فيه حيث قال "هكذا قال الشيخ، وهو أغرب مايقال في تفسير القرآن الكريم، فهو أبعد ممايكون عن معناه وعن أهدافه

---

(١) بنت الشاطئ/ القرآن والتفسير العصري ط درار المعارف ١٩٦٩/٣٩

(٢) محمد حسين الذهبي / التفسير والمفسرون جـ٢/٤٦٩ وما بعدها

وأغراضه، كما أن تحضير الأرواح علم كاذب، لا يوافق الدين على الإيمان به"(١) وقد ذكر مسألة الأرواح لأن المثال الذي أتي به من تفسير الجواهر كان خاصا بهذه النقطة حينما تعرض طنطاوي جوهري لتفسير قوله تعالي(وإذ قال موسي لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) إلي آخر هذه القصة التي سميت السورة بها، وبين أنها تشير إلي علم الأرواح، ولذلك جاء إنكاره من هذه النقطة، ويختتم حديثه عنه قائلاً" وعلي الرغم من أن الشيخ كان رجلا تقيا علي ماعرفته فيه، وجربته منه، فانه كان ذا خيال خصيب، وكان لهذا يخضع القرآن لما يتخيله في معانيه، بأفكاره العريضة ذات الآفاق البعيدة - وإن جانبها الصواب، غفر الله له ماقال عن حسن ظن، مما خالف فيه ماينبغي في تفسير كتاب الله المجيد" (٢). وهو أبلغ تعبير عن موقفه ولولا أنه يعرفه شخصيا ويعرف تقواه لمادعا له بالمغفرة ولكن جملته الأخيرة " مما خالف فيه ماينبغي في تفسير كتاب الله المجيد"تعبر عن موقفه من هذا التفسير أبلغ تعبير.

وعلي النقيض من ذلك يقف باحثون آخرون مؤيدين للشيخ طنطاوي جوهري ومشيدين بجهوده مثل جومبيه فيما نقله عنه عفت الشرقاوي في كتابة" الفكر الديني في مواجهة العصر "وكذلك الكاتب والناقد رجاء النقاش» في مقالتين بجريدة المصور، وقد نقل عبد العزيز جادو في كتابه عن الشيخ طنطاوي جوهري كثيرا مما جاء في هاتين المقالتين من إشادة بالرجل ومسلكه، وأهم ماجاء في ذلك "أنه يعد أبرز من حل مشكلة التعارض بين

(١) مصطفي الحديدي الطير/ اتجاه التفسير في العصر الحديث ط مجمع البحوث الاسلامية ١٩٧٦ صـ٧٥

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسه

القرآن والعلم"(١) ومن خلال طرح هذه الآراء تتبين موقف عبد العزيز جادو أيضا المويد بشدة للشيخ والمدافع عنه ولعل أبلغ ماقاله في هذا الشأن"وهكذا نجد أستاذنا الفيلسوف الإسلامي الشيخ طنطاوي جوهري يفسر آيات القرآن تفسيراً علميا يقوم علي نظريات حديثة وعلوم جديدة لم يكن للعرب عهد بها من قبل، فهو يقود المفسرين الذين يأتون من بعده إلي أفضل طرق التفسير، كما فاق من سبقه في ذلك فأنت تري الفلك والطب والهندسة والسياسة والاجتماع وكل علم مافي السماء والأرض، وكل ماانتهت إليه الثقافة في مختلف عصورها من أول عهود الثقافة إلي الآن- من عهد أفلاطون إلي عهد كانط - كل أولئك مذكور في هذا التفسير بأجلي بيان موضح بأعظم توضيح، ولاغرو فالاستاذ يفيض علما ونوراً، لأنهما يصعدان عن عالم عامل بما يقول، وعن عقيده هي بقية من بقايا السلف الصالح المختار (٢) وهذا نص غني عن التعليق والتوضيح في تأييد الرجل والإشادة بعلمه وتفسيره.

وبين هذين الموقفين يأتي موقف وسط لاثنين من الباحثين الأول هو عفت الشرقاوي في كتابه" الفكر الديني في مواجهة العصر" حيث طرح القضية في اطار مناقشة هادئة لظاهرة العلم والدين، وقد عرض فيها لكل الآراء التي قيلت في هذا الشأن وينتهي إلي رأي أنه "من العسير علي الباحث أن يحدد

(١) نقلا عن عبد العزيز جادو/ الشيخ طنطاوي جوهري /٥٩

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها

موقفه إزاء هذين التيارين المتناقضين، فليس من شك في أن أصحاب الاتجاه العلمي قد أسرفوا في التأويل البعيد رغبة في الدفاع عن التنزيل الحكيم واستحداث مقولات جديدة في التفكير الكلامي تتفق وذوق العصر، ولقد يبدو أن فتنة العصر الحديث بالعلوم قد انتقلت إليهم فحاولوا من جانبهم مجاراتها عن طريق إخضاع النص لها، ولكن هذا لايحملنا علي إنكار التفسير العلمي إنكاراً تاما كما يري بعض الباحثين، ففي القرآن الكريم من الآيات مايكشف عن كثير من الحقائق العلمية الخالده إذا أحسن عرضه دون تكلف أو إسراف "(١) وهو موقف وسط لايسير مع المعارضين ولامع المؤيدين ويؤكده مرة أخري في ختام حديثه عن القرآن والعلم.

وقد سار علي النهج نفسه محمد إبراهيم الشريف في كتابه " اتجاهات التجديد في التفسير في مصر"،متابعا لعفت الشرقاوي في كثير مما قاله وإن كان في شئ من التفصيل ومبينا عدم تعارض القرآن مع الحقائق العلمية الثابتة ومستعرضا لأمثلة كثيرة من توافق القرآن مع العلم وسارداً لآراء كثيرين ممن حاولوا دراسة ظاهرة التوفيق بين العلم والدين كالغمراوي وسيد الأهل ورضوان الشافعي وغيرهم كثير مما لم نستطع معه ان نتبين نصا صريحاً يعبر عن رأيه، ولكن إيراد النقول الكثيرة في سياق واحد يؤيد فكرة التفسير العلمي للقرآن بضوابط محددة،ومختتماً إياها برد علي منكري هذه الظاهرة يبين أنه من المؤيدين لهذا المسلك في التفسير مع وضع هــــذه

---

(١) عفت الشرقاوي / الفكر الديني في مواجهة العصر /٤٢٨

الضوابط والمعايير في الاعتبار.(١) والحق أن هذه الظاهرة بالرغم من وجود اعتراضات كثيرة عليها إلا أنها أصبحت واقعاً، حتي أنه تكونت فها جمعية رسمية باسم "جمعية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ونري أنه لاتعارض بين الدين والعلم، وليس من المعقول ان يظل فهم المفسر للقرآن الكريم منغلقاً علي مجرد التفسير اللفظي أو البلاغي للقرآن الكريم وسر إعجازه اللغوي، فهناك كثير من الإشارات الكونية في القرآن الكريم، ولابد من فهمها وتوضيحها حتي يتسني للمؤمن أن يدعم اعتقاده في الله وفي كلامه العزيز، وفي هذا العصر العلمي بالذات لايمكن ان نكابر ونقول انه يجب أن يؤمن سواء فهم هذه الإشارات أم لم يفهمها، فما الضرر إذن في أن يعتقد ويؤمن بالله، ثم يدعم إيمانه بما في الكون من مظاهر تدل علي قدرة الخالق، ولو أن هذه المسألة فيها شئ من الحرمة لما طلب سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتي حتي يطمئن قلبه، وإذا سار منهج التفسير العلمي في هذا الخط فلا غبار عليه بشرط أن لايتجاوز ماهو موجود، ولايتعسف في تأويل النص القرآني لاستخراج مالايمكن استخراجه منه، أي أنه يجب أن يسير المفسر في طريقه منطلقا من النص لافارضا عليه مفاهيم قد تتعارض معه، ثم نأخذ في محاكمة النص علي أساس توافقه معها من عدمه، وهنا يكمن الخطأ الذي لايجب السكوت عليه.

ونظن أن الشيخ طنطاوي جوهري لم يتخط هذا الخط الفاصل حتي وإن

---

(١) محمد ابراهم الشريف / اتجاهات التجديد في التفسير في مصر /٦٢٧-٧٠٠

بداغير ذلك من كثرة ماطرح من أفكار فهو لم يأخذ لفظة قرآنية لاتحتمل التأويل العلمي ويؤولها في هذا الاتجاه ، بل سارر مع النص ومنطلقا منه والأمر الذي يؤخذ عليه هو كثيرة استشهاداته باستنتاجات علماء الأرواح في الغرب في إطار مجال ليس له سند ديني قوي هذا بالاضافة إلي استطراداته التي يمكن أن تشغل ذهن القارئ وتصرفه عن متابعة النص القرآني سواء في أحكامه أو في مدلولاته العلمية، وإن كان للحق دائم التعقب عليها بمايربطها بالنص ؛كما أشرنا إلي ذلك في موضعه ، وبالرغم من محاولة طنطاوي جوهري في تفسيره أن ينطلق من النص كما سار علي ذلك سابقوه ؛ إلا أنه لم يسلم من الوقوع في منزلق الدفاع عن الدين في مواجهة العلم بمستحدثاته ؛ وهذا هو المنطق الذي نرفضه لأننا نؤمن إيماناً يقينيا بأن الدين أسمي من ذلك، وإذا حاول أحد من الناس أن يلمز الدين بهذا فان ذلك يعود إلي جهله بحقيقة هذا الدين، وحقيقة العلم، فالدين ثابت، والعلم متغير، لأن الدين غاية وهدف، والعلم وسيلة، ومن حق الوسيلة أن تتغير وتتطور بتطور الأجيال بينما يظل القرآن الذي هو أساس الدين ثابتا، مناراً يعطي، والاختلاف في فهمه، وتطور الأفهام حوله لايعني تغيره وتطوره، بل يشهد للنص بقدسيته وعظمته واتساع آفاقة وثرائه الذي لايحتاج إلي توضيح ولعل العذر الوحيد للشيخ طنطاوي في ذلك أن هذه المقارنات والموازنات كانت سمة عصره، وبالطبع لابد أن يتأثر بها مهما حاول تجنبها.

ومهما قيل في تفسير الجواهر، فانه يعد بحق نموذجاً لتوضيح هذه الظاهرة تأثر به كثيرون بالرغم من أننا لانجد إشارة واحدة عند من تعرضوا

لهذه الظاهرة في كتبهم تشى بإفادتهم منه، ونظن أن هذا يعد غبنا في حق الرجل وفي حق جهده الكبير الذي بذله ومهما اتفقنا او اختلفنا معه فانه يجب أن يأخذ حقه من البحث والدرس بقدر جهده.

خاتمة

بعد استعرضنا المفصل لظاهرة التفسير العلمي للقرآن بدءاً من بواكيرها الأولي ممثلة في محاولات المفسر القديم ، ومروراً بمراحل تطورها في عصر الإحياء ، وانتهاد بظهورها ناضحة مكتملة في العصر الحديث عصر العلوم نستطيع أن نصل إلي عدة نتائج؛

أولا: لم تكن هذه الظاهرة وليدة العصر الحديث نتيجة الاتصال العلمي بالحضارة الغربية التي يعد العلم أهم سماتها، وإنما فطن إلي ذلك المفسرون القدماء الذي تعرضوا لتفسير القرآن الكريم بالرأي والاجتهاد، وذلك في إطار محاولاتهم إثبات وجود الله وقدرته في الكون.

ثانيا: إن المفسر القديم حين تعرض لهذه الظاهرة انطلق فيها من منطلق قرآني حيث جاءت الآيات المتضمنة للإشارات الكونية مصحوبة دائما بالتنبيه علي مافيها من الآيات والعظات التي لايفهمها إلا العاقلون والعالمون، ومن هذه الزاوية بدأ حديثه، ولعل ذلك واضح جدا في تفسير الرازي الذي يعقب دائما بقوله:" وهذا دليل علي وجود الصانع المختار أو علي قدرة الصانع المختار" بينما وقعت كثير من الجهود الحديثة في منزلق خطير بسبب رغبتهم في الموافقة بين نظريات العلم الحديث وبين إشارات القرآن فكانت أحيانا تنطلق من النظريات وتطبق ذلك علي الدين مما جعل الأخير في موقف الدفاع وهو منطلق خاطئ بلاشك بالرغم من حسن النية.

ثالثا: إن هناك تواصلا كبيرا بين المراحل الثلاثة حيث تنطلق كل مرحلة من مراحل هذا التطور من سابقتها وتبني عليها، ولم نلحظ مرة واحدة إشارة إلي هدم أو إلغاء لما سبق، فقد أخذ الإسكندراني كثيراً من الرازي ونقل منه، ثم أضاف إليه من المعلومات مما رآه لم يكن معلوماً في عصره، وإذا كان طنطاوي جوهري نتيجة حماسه لهذه الظاهرة قد نعي علي القدماء، انشغالهم بالتفسير اللفظي والبلاغي والفقهي ولم يلتفتوا الي مافي القرآن من كنوز علمية علي حد تعبيره ، فان هذا لايعني عدم تواصله مع سابقيه، بل أخذ منهم وتواصل معهم وأضاف اليهم أيضا مااستجد من معارف علمية، وربما كان قصده أن ما طرحوه لم يكن كافيا، بل تعدي طموحه ما قدموه، ومن ثم قدم هو الصورة التي يراها مكتملة لتفسير القرآن تفسيرا علميا من وجهة نظره.

رابعا: من تتبعنا لهذه الظاهرة نجد أنه بالرغم من الانتقاد الشديد لها من بعض أعلام الفكر إلا أنها انتشرت بصورة ملحوظة، بل إننا نستطيع أن نقول: ان الجهود التفسيرية للذين انتقدوها لم تخل من اعتماد علي معطيات العلم الحديث في تناولهم لبعض آيات القرآن الكريم سواء في الحدود أو في الإشارات الكونية، وذلك أمر طبيعي لأنهم يقدمون جهدهم لجمهور مشغول بالضرورة وبحكم التطور الذي نعيشه بظاهرة العلم، وذلك أمر لايعيب المفسر بل يعد استجابة منه للواقع الذي يعايشه مما يؤكد أن التفسير مثل كل الفنون والآداب والمعارف تتأثر بالبيئة والواقع، بل إنه كان اكثر استجابة لمتطلبات الواقع عبر العصور المختلفة، وهذا لايسئ إلي النص القرآني علي الإطلاق.

وليس في هذا الاتجاه فقط انتشرت ظاهرة التفسير العلمي، بل إنها أخذت اتجاها مستقلا ظهر في جهود تفسيرية كثيرة قدمها علماء متخصصون في شتي مجالات العلم منهم الطبيب والمهندس والجيولوجي والكميائي وغيرهم من المتخصصين في العلوم النظرية والعلمية علي السواء، ولكثرة هذه الجهود لم نتمكن من إضافتها في هذا الكتاب الذي أردنا أن يكون مقصوراً علي تطور الظاهرة حتي نضجها، ثم نتبعه إن شاء الله بجزء ثان نتعرض فيه بالتفصيل لتلك الجهود سواء التي جاءت في تفسيرات المفسرين أو في كتب العلماء حي نعطيها حقها من الدراسة بدلا من أن تكون فصلا في هذا الكتاب فنضطر إلي ضغط الحديث عنها، ولانسطيع رصدها، بالتفصيل.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

أبو حامد الغزالي :

إحياء علوم الدين (٤ أجزاء) ط دار الغد العربي ، القاهرة ١٩٨٦م
جواهر القرآن ط (٥) بيروت ١٩٨١م

طنطاوي جوهري : الأرواح ط٣ دار النهضة العربية ١٩٧٨م

أين الإنسان ط٣ دار النهضة العربية ١٩٧٨م

التاج المرصع بجواهر القرآن ط٢ التجارية بمصر ١٩٣٣م

جواهر العلوم ط٢ التجارية بمصر ١٩١٩م

الجواهر في تفسير القرآن ط الحلبي بمصر ١٣٤٠-١٣٤٧هـ

القرآن والعلوم العصرية ط٢ التجارية بمصر ١٩٢٣م

ميزان الجواهر ط٢ التجارية بمصر ١٣١٨ هـ

نظام العالم والأمم ط٢ التجارية بمصر ١٩٣١م

الفخر الرازي

أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، تحقيق محمود أحمد محمد وآخرون ط
وزارة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق ١٩٨٥م

المباحث المشرقية طـ طهران ١٩٦٦م

مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) طـ(١) الأميرية بمصر ١٢٨٩هـ وط دار الغد العربي بمصر ١٩٩٠

محمد بن أحمد الإسكندراني (الطبيب) :كشف الأسرار النورانية القرآنية طـ الوهبية بمصر ١٢٩٧ هـ

ثانيا : المراجع

أمين الخولي : التفسير معالم حياته .. منهجه اليوم ، ط دار المعلمين بمصر ١٩٤٤م

مناهج تجديد طـ(١) دار المعرفة ١٩٦١م

بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) . (دكتور) : القرآن والتفسير العصري

جلال الدين السيوطي : الاتقان في علوم القران ط الحلبي ١٩٣٥م

جولد تسيهر : مذاهب التفسير الإسلامي ت عبد الحليم النجار طـ(٣) دار اقرأ ببروت ١٩٨٥

خير الدين الزركلي : الأعلام طـ٢ مصر ١٩٥٥

سيد أحمد خليل (دكتور) : نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن طـ الاسكندرية ١٩٥٤م

عبد العزيز المجدوب : الرازي من خلال تفسيره طـ الدار العربية للكتاب

ليبيا/ تونس ١٩٨٠م

عبد العزيز جادو (دكتور) الشيخ طنطاوي جوهري: دراسة ونصوص جـ١ دار المعارف بمصر ١٩٨٠عبد المنعم النمر (دكتور): علم التفسير ط دار الكتاب الاسلامي القاهرة ١٩٨٥م

عفت الشرقاوي (دكتور٩ : الفكر الديني في مواجهة العصر ط الشباب، القاهرة ١٩٧٦م

مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ت : عبد الصبور شاهين ط القاهرة ١٩٧٥م

محمد إبراهيم الشريف (دكتور) اتجاهات التجديد في التفسير المصري ط(١) دار التراث ١٩٨٢م

محمد الفاضل بن عاشور (دكتور): التفسير ورجاله ط مجمع البحوث الاسلامية بمصر ١٩٧٠م

محمد جميل الشطي : تراجم أعيان دمشق في ق ١٤،١٣ الهجري ط دمشق ١٩٤٨م

محمد حسين الذهبي (دكتور): التفسير والمفسرون ط مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨٥م

مصطفي الحديدي الطير (دكتور) : اتجاه التفسير في العصر الحديث ط المجلس الاعلي للشئون الاسلامية بمصر ١٩٧٥م

مصطفي صادق الرافعي : إعجاز القران والبلاغة النبوية ط ٩ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٣م

نصر حامد أبو زيد (دكتور) : مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ط الهيئة العامة للكتاب بمصر ١٩٩٠م

يوسف سركيس : معجم المطبوعات العربية ط سركيس بمصر ١٩٢٧م.

الفهرس

رقم الإيداع ١٦٤٨/١٩٩١

الترقيم الدولي 977-00-10871